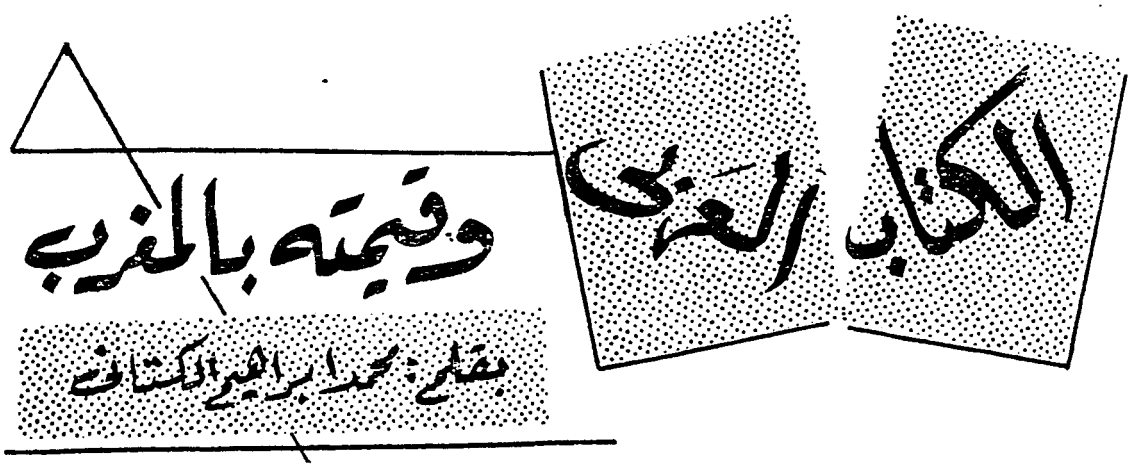

الصعوبات التي تكتنف الموضوع

ليس الحديث الذي طلبه مني المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي (حول الكتاب المغربي وقيمته) بالامر السهل الهين ، ذلك أن الكتاب المغربي له تاريخ طويل يستغرق أزيد من الف سنة ، مر فيها بمراحل مختلفة ، من نشأة ، ونمو ، واكتمال ، وضعف وانحطاط وتخلف ، وانبعاث ، تبعا للعوامل المختلفة التي خضع لها .

ولكي يكون الحديث عن الكتاب المغربي حديثا علميا موضوعيا ، يجب :

أولا وقبل كل شيء ، أن يكون لدينا إحصاء دقيق شامل لجميع ما أنتجه المغاربة منذ دخولهم في الاسلام الى اليوم ودراسته **ثانيا** دراسة علمية نقدية مع مقارنته **ثالثا** بما أنتجه غير المغاربة ـ من عرب وغيرهم ـ في موضوعه . قبل عصره الذي كتب فيه وفي نفس العصر ، وبعده .

مع التعرف **رابعا** بتدقيق على الدور الذي قام به في ميدان نشر المعرفة عموما ، والثقافة العربية والاسلامية في المغرب أولا ، ثم في مختلف المناطق الواقعة جنوب المغرب ثانيا ، ومقدار مساهمته في ذلك الى جانب الكتب العربية الاخرى في مختلف الاقطار ، وخصوصا المجاورة منها ، أو التي كانت لها صلات ثقافية وثيقة بالمغرب ، وذلك أمر ما نزال بعيدين عنه بعدا شاسعا .

فأما الاحصاء الدقيق الشامل ، فانه يتوقف :

أولا ـ على تسجيل جميع ما يوجد في جميع مكتبات المساجد والزوايا في مدن المغرب وقراه ، وفي الجبال والصحارى ، وفي القصور الملكية . ومكتبات أهل العلم وأبناء الاسر العلمية ، وهو عمل اذا كنا قد شرعنا فيه منذ الاستقلال ، وحققنا فيه نتائج مهمة لا يستهان بها ، فانه لا يزال أمامنا لاتمامه زمن طويل لاسباب عديدة لا مجال للحديث عنها الآن .

ويتوقف ـ **ثانيا** ـ على معرفة المخطوطات المغربية المتفرقة في مختلف مكتبات العالم وخصوصا في أوربا وأميركا ، وجميع البلاد العربية والاسلامية في افريقيا وآسيا سواء في المكتبات المنظمة أو غير المنظمة والتي قد تنفرد بمخطوطات مغربية لم يبق لها أثر بالمغرب ، وهو أمر لا زلنا لم نشرع فيه لحد الآن .

ويتوقف ـ **ثالثا** ـ على استقصاء ما ورد في كتب التراجم ومختلف المراجع والمصادر من أسماء المؤلفات المغربية .

وسيبقى عملنا ـ بعد ذلك كله ـ ناقصا نقصا كبيرا، نظرا الى أن أصحاب التراجم لا يكادون يهتمون باحصاء مؤلفات من يترجمون لهم ، وانهم لا يترجمون لجميع المؤلفين .

وأن كثيرا من المؤلفين المغاربة غادروا المغرب الى مختلف البلاد شرقا وغربا ، ولم يصل الى المغرب من أخبارهم وأخبار مؤلفاتهم الا القليل .

الحاجة الى فهرس للمؤلفات المغربية

واذا لاحظنا ان أهم فهرس جامع للكتب العربية ،

وهو كتاب (كشف الظنون) لم يذكر من مؤلفات المغاربة الا النزر اليسير ، علمنا مسيس حاجة المكتبة العربية عموما والمكتبة المغربية بوجه خاص الى فهرس جامع للمؤلفات المغربية يملأ هذا الفراغ .

نكبات المكتبة العربية عموما ، والمغربية خصوصا

أضف الى ذلك ، أن المكتبة العربية وخصوصا في الغرب الاسلامي . على اختلاف أقطاره ومناطقه ، قد تعرضت فترات طويلة ، للنهب والاختلاس ، بل والاحراق والاتلاف على يد الصليبيين والمستعمرين : الاسبانيين . والبرتغاليين ، والفرنسيين ، والايطاليين ، في الاندلس ، وصقلية ، وتونس وليبيا ، والجزائر ، وافريقيا الغربية ، بل وفي المغرب الاقصى نفسه !

ويمكن تقدير فداحة الخسارة الفظيعة التي أصيبت بها المكتبة المغربية من جراء احتلال مدينة سبتة الغادر. **انا نحن استحضرنا المركز العلمي الممتاز الذي كان لهذه المدينة الشهيدة وما كانت تزخر به من مكتبات** عمومية وخصوصية ، قال عنها محمد بن القاسم الانصاري السبتي في (اختصار كتاب الاخبار ، عما كان بسبتة من سني الآثار) :

انها اثنتان وستون خزانة في الزمن القديم قال : وكان منها في زماننا ـ يعني أوائل القرن التاسع للهجرة أوائل الخامس عشر للميلاد ـ سبع عشرة خزانة ، تسع بدور الفقهاء ، والصدور .... وثمان موقوفة على طلاب العلم ، كخزانة أبي الحسن الشاري ذات الاصول العتيقة ، والمؤلفات الغريبة . وأعظمها احدى خزانتي الجامع العتيق . قال : وهي في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ، ولا نوع من المعارف أصلا . مع تعدد مصنفات **ذلك الفن وكثرة دواوينه** ، وباقي هذه الخزائن مفترق ، منها بالمدرسة الجديدة خزانتان ، وبمسجد القفال خزانة واحدة وبمسجد مقبرة زكلوا أخرى وهو أكبر مسجد بسبتة بعد المسجد الاعظم منها .. وخزانة أخرى بجامع الربض الاسفل . (1)

وكم ضاع من مؤلفاتنا في شواطئنا الشمالية والغربية التي استمرت سنين طويلة عرضته للاعتداء الصليبي وخصوصا من قبل البرتغاليين والاسبانيين .

وكم ضاع في الساقية الحمراء وموريطانيا والصحراء الشرقية التي كانت حدودها الى وقت قريب تتصل بحدود ليبيا .

وكم اختلس سفراء أوربا وعلماؤها وأطباؤها وتجارها من نفائس الكتب ونوادرها التي لا تقدر بمال .

ومن ذلك ما ذكره دوفيردان Gaston Deverdun في كتابه عن مراكش أن ايتيان هوبير Etienne Hubert الفرنسي الذي قضى بمراكش سنة 1598 م 1006 ـ 1007هـ تعمق فيها في اللغة العربية حتى صار من كبار علمائها . واكتفى بمغادرة هذه المدينة ممتلأ علما ، ومثقلا جدا بالمخطوطات العربية التي فاقت ما حمله من الاموال والنفائس الثمينة (ص 436)

مخطوطات الايسكوريال

كما لا تخفى قصة الثلاثة آلاف مجلد التي أرسلها السلطان زيدان السعدي سنة 1020 هـ 1612 م من مرسى مدينة اسفي الى مرسى مدينة أكادير في ثلاث سفن فرنسية ، على يد القنصل الفرنسي كاستيلان ، فخان البحارة الفرنسيون أصحاب السفن الامانة ، وفروا بالكتب عبر البوغاز ، ولكن الاسبانيين استولوا على الكتب في عرض البحر . ووضعوها في دير الاسكوريال الشهير بالقرب من مدريد . وفي سنة 1081 هـ 1671 م انقضت صاعقة على دير الاسكوريال ، فأحرقت أكثر من الفي مجلد من مخطوطاته العربية .

ومنذ استيلاء الاسبانيين على هذه الكتب وملوك المغرب متمسكون بالمطالبة بارجاعها الى المغرب تمسكهم بالمطالبة بارجاع سبتة ومليلية ، وكان ذلك من المهمات التي تسند الى سفراء المغرب لدى البلاط الاسباني .

فقد ذكر السفير الانجليزي جون هاريسون في تقريره أن السلطان زيدان حمله رسالتين :

أولاهما مؤرخة بـ 14 يناير 1615 موجهة الى الحكومة العامة للاراضي الواطئة يطلب فيها من هذه الحكومة أن توسط ملك فرنسا لويس الثالث عشر في أن يعمل على تحرير مكتبته .

وثانيتهما كلف السفير بتسليمها بنفسه الى الملك الفرنسي يدا بيد ، يطلب منه فيها أن يتدخل لدى فيليب

---

1) ص. انشر ليفي بروفنصال ، و ص 82ـ83 مجلة تطوان العددان 3ـ4 سنة 1958ـ1959 .

الثالث ملك اسبانيا لاعادة الكتب التي استولى عليها القراصنة الاسبان (2) .

ومن ذلك مطالبة الوليد بن زيدان بكتب الاسكوريال من جوان دوبرادو سنة 1040 هـ 1631 م كما عند دوفيردان في كتابه (مراكش) (ص 435) .

ومطالبة سفير المولى محمد بن عبد الله احمد الغزال سنة 1180هـ 1766م من كارلوس الثالث Carlos III (نتيجة الاجتهاد ص 58) .

ومطالبة السفير ابن عثمان المكناسي سنة 1193 هـ 1779م من كارلوس الثالث أيضا فأهداه كتبا عربية للمولى محمد بن عبد الله ، وقال عن كتب الايسكوريال : انها محبسة لا يمكن التصرف فيها ؟ حسبما ورد في رحلته (الاكسير ، في افتكاك الاسير) التي بقيت مدة طويلة معتبرة ضائعة الى أن وفقت للعثور على ثلاث نسخ منها : أولاها بمكتبة تامكروت واشتريت ثانيتها للخزانة العامة بالرباط ، وعثرت على ثالثتها بخط المؤلف بمكتبة القصر الملكي بالرباط ، ويقوم مركز البحث العلمي التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط بنشرها بتحقيق صديقنا الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة ، ورئيس اللجنة التنفيذية لليونيسكو .

لويس الرابع عشر

وذكر الكونت فيليب دي طرازي في كتاب (خزائن الكتب العربية في الخافقين) أن لويس الرابع عشر كلف سفيره دي مونسو De Monceaux سنة 1077هـ 1667 م بمهمة خطيرة الى المغرب الاقصى ، وهي ان ينقب تنقيبا دقيقا عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتاعها له . وقال له : ان من تلك المخطوطات شيئا كثيرا في خزائن جامع القرويين بمدينة فاس .

كما كلفه أن يشتري له الفا وسبعمائة قطعة من الجلود المغربية الكبيرة الحجم التي يصلح كل جلد منها لتجليد كتابين ضخمين (2) .

وفي سنة 1092هـ 1682م كتب لويس الرابع عشر الى سانت أمان سفيره لدى سلطان المغرب الاقصى : « انه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية في فاس ، ولاجل ذلك اوفد اليه بعض أهل المعرفة للاطلاع عليها ، والتثبت من مضامينها ، واوعز اليه أن يسهل مهمتهم (4)

وفي نفس هذا القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، أنشأ بارتيلمي Barthélemy في منزله بباريس خزانة كتب نادرة الوجود بما اشتملت عليه من مخطوطات عربية وافرة اشترى له أكثرها بعض السياح الاجانب من بلاد الشام واليمن والمغرب الاقصى (4)

وأما بعد الاحتلال الاجنبي للمغرب

فقد تهافت المستعمرون على اختلاس المخطوطات والاعتداء عليها

ففي الخزانة العامة بالرباط قائمة باسماء المخطوطات التي ضاعت في فترة الاحتلال .

وأخبرني صديقي الامام محمد البشير الابراهيمي مد الله في عمره ، عندما كنت ضيفه بتلمسان في ربيع سنة 1936م أن المستعرب بيل كان يعرض في (المدرسة) بتلمسان مجموعة من المخطوطات العربية في الرياضيات والفلك ونحو ذلك ، قال : وهي مما اختلسه من مكتبة القرويين عندما كان يشرف على تسجيل كتبها فيما بين 1914 ـ 1916 م !

كما تحدث زميلنا الاستاذ محمد العابد الفاسي في رسالته (الخزانة العلمية بالمغرب) عن بعض نفائس المخطوطات التي كانت بمكتبة القرويين ولم يبق لها أثر ، ومنها ما بقي الى ما بعد الحماية وسجله بيل في القائمة المطبوعة بفاس لكتب المكتبة مثل جزء (نزهة المشتاق) (5)

ويقال ان السلطات الفرنسية استعارته من المكتبة لتعرضه في معرض فاس ، ولكنها لم ترده ، ويقال انه أرسل الى باريس .

ونشرت جريدة العلم سنة 1956م رسالة من مراسلها في الريصاني ذكر فيها أن الجيش الفرنسي ، عندما احتل الريصاني أحرق المكتبة التي كانت بضريح مولاي علي الشريف جد الاسرة المالكة .

وأخبرني الاستاذ الزيتوني محافظ مكتبة المعهد الاسلامي بتارودانت أن الجيش الفرنسي أحرق كذلك مكتبات بالاقليم السوسي عند احتلاله .

وانه لمن المؤسف اشد الاسف أن تبقى المكتبة

---

2) مجلة تطوان ، العدد التاسع 1964 ص 127 ـ 128 2 مكرر) ج 2 ص 586ـ587) .

4) دي طرازي 588/2 (4) ج 613/2 (5) ص 34,31

المغربية خالية من كتب تسجيل فظائع الاحتلال الاجنبى فى مختلف أطراف البلاد !

وقد كان من نتائج اعتداءات المستعمرين وعملائهم على المخطوطات وسرقتها واغتصابها أن صار المخلصون يتسترون على ما عندهم منها ويخفونها حيث لا تصل اليها الاعين ، مما عرض كثيرا منها للضياع أيضا !

واذا كان بعض ما نهب واختلس بطرق دنيئة قد وضع فى بعض المكتبات المنظمة بحيث يسهل أحيانا على بعض الباحثين الاطلاع عليه والاستفادة منه . رغم ما يعترض ذلك من صعوبات فى بعض الاحيان ، فان كثيرا مما اختلس قد انقطع خبره واكتنف مصيره الغموض والابهام .

ونشير بهذه المناسبة الى وجوب صدور تشريع يحمى تراثنا الثقافى فيمنع بتاتا خروج أي مخطوط من المغرب ويعاقب المخالف باقسى العقوبات خصوصا ونحن نساعد على تصوير كل مخطوط يطلب منا تصويره مهما كانت اهميته وقيمته ، ولا نثير فى وجه طالبه أية صعوبة، وعندنا من الامكانيات المساعدة على ذلك ما لا يوجد نظيره فى أي قطر آخر من الاقطار العربية .

هذا عن الاحصاء الدقيق الشامل

وأما الدراسة العلمية النقدية المقارنة

فيكفي لبيان بعد ما بيننا وبين الوصول الى نتائج قطعية فيها ، ان نشير الى أن **الكتاب المغربى قد تناول** ـ بنسب مختلفة ـ **جل الموضوعات التى تناولها الكتاب** العربي على العموم .

فقد ألف المغاربة فى علوم القرآن ، من رسمه وضبطه وقراءاته وتجويده وتفسيره ونحو ذلك .

وفى علوم الحديث رواية ودراية . فالفوا فى مصطلح الحديث ، وفى السيرة النبوية وفى فقه الحديث ، وفى أسانيد الكتب والفهارس وتراجم الرجال ، وفى الجرح والتعديل وغير ذلك ، كما وضعوا الشروح والتعاليق على كثير من كتب الحديث .

وألفوا فى أصول الفقه وفروعه ، من عبادات ومعاملات ، ومواريث ، وتوثيق ، وقضاء ، وفي أحكام الجهاد ومناسك الحج . وفى النوازل والاحكام . وفى الفقه المقارن وفي قواعد الاحكام والفروق والحسبة ، والسياسة الشرعية ، ونحو ذلك .

وألفوا فى العقائد والكلام والمنطق والفلسفة والجدل والمناظرات والرد على المبتدعة .

وفي التصوف والاخلاق ، والمواعظ والمواجد والاذواق والمناقب وفى الاوراد والاذكار والدعوات والتصليات على النبي صلى لله عليه وسلم ، وفى شرح أسماء الله الحسنى ، وخواصها وفى سر الحرف وفى السحر وتعبير الرؤيا ، ونحو ذلك .

وألفوا فى التربيه والتعليم ، وتقسيم العلوم والسياسة والنظم الادارية وفى نصح الملوك ونقد المجتمع .

وفى الحساب والتوقيت والتعديل والجبر والهندسة والفلك والازياج والتنجيم

وفى الطب والصيدلة والكيمياء والفلاحة والنبات والحيوان والبيطرة والطبيعة وعلوم الحرب والبحر .

وفى الجغرافية والرحلات وتاريخ الدول والملوك والمدن والاقاليم والقبائل وعلم الانساب .

وفى النحو والصرف واللغة وقواعد الرسم والبلاغة والعروض والقوافى والموسيقى .

وفى فنون الادب المختلفة ، من امثال وحكم ومحاضرات ومحاكمات ادبية ومقامات وفي الحماسة والشعر بموضوعاته المختلفة على العموم فصيحا وشعبيا، وفى النثر الفنى ، والالغاز ، والهزل والمجون ، والقصص والخرافات والاساطير وغير ذلك .

وقل ان يوجد موضوع خاضه الكتاب العربي لم يساهم فيه الكتاب المغربى كما أنه لا تكاد توجد مشكلة فكرية أو اجتماعية شغلت بال المجتمع الاسلامى لم يتناولها الكتاب المغربى بالدرس والتمحيص .

والوقت الضيق المحدد لهذا الحديث لا يسمح بايراد أي مثال لشيء مما ذكرناه .

ولكنا نورد كلمة موجزة عن مساهمة الكتاب المغربى فى حركة (التعريب) اي الترجمة عن اللغات الاجنبية الى العربية .

من المعلوم أن هذه الحركة عرفت عصرها الذهبى على عهد المامون العباسى فى الربع الاول من القرن 3هـ الثلث الاول من ق9م ثم لم تستمر بعد ذلك الا قليلا .

ولعل آخر كتاب ترجم الى العربية فى القرون الوسطى فى الشرق العربى هو كتاب (شاهنامة)

الفردوسي التي عربها الفتح بن على البنداري الاصبهاني سنة 697هـ 1297م (6)

ثم لم تعد هذه الحركة للظهور فى الشرق العربى الا في النصف الاول من القرن 19م على عهد محمد علي فى مصر ، كما هو معلوم (7)

أما فى المغرب فقد استمرت هذه الحركة الى سنة 1000هـ 1592م وما بعدها .

فقد ذكر المقرى التلمسانى فى (روضة الآس ، العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس) الذي بقي ضائعا مدة مديدة الى أن وقع العثور عليه أخيرا بالقصر الملكى ونشرته المطبعة الملكية: (أن بعض أكابر الروم قدم على احمد المنصور الذهبى وأتحفه بكتاب في الطب مكتوب بالقلم الاعجمي ، فعربه العالم الجليل الطبيب أبو القاسم الوزير الغسانى من اهل فاس وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات وسماه (مغنى الطبيب عن كتب أعداء الحبيب) (8) .

وسياتى الكلام على كتاب (العز والمنافع) الذى ترجمه احمد بن قاسم الحجري ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده .

وذكر دوفيردان Gaston Deverdun فى كتابه (مراكش) أن أنتوان دوسانت مارى الدومينكانى الارلندى ، الذى كان أسيرا بمراكش ، اشتغل مدة ثمان سنوات بأمر من زيدان بن المنصور بترجمة الكتب اللاتينية التى كانت عند زيدان الى اللغة القشتالية، وعنها تترجم الى اللغة العربية (9)

وأهم عمل مغربى وصلنا فى ميدان التعريب ، هو كتاب (**انجامع المقرب النافع المعرب**) الذى عثرنا عليه بمكتبة القصر الملكى بالرباط ، وهو تعريب لارصاد لالاند الفرنسى الذى كان رصده الاخير سنة 1773 م 1186 ـ 1187 هـ

وتقع الترجمة فى 3 مجلدات ضخام فى الحجم الكبير فيها تسعمائة وثمان وسبعون ورقة وفيها أربعة آلاف ومئتان وعشرون فصلا . وتشتمل على كثير جدا من الجداول والاشكال الهندسية .

وكان الفراغ منها فى 28 رمضان 1268هـ 16 يوليوز 1852م .

وقد قام بالتعريب جماعة من المعربين بالقصر الملكى بفاس بأمر من السلطان محمد الرابع رحمه الله وتحت اشرافه وتوجيهه ، وبعدما أتموا عملهم بصفة نهائية كتب السلطان بنفسه مقدمة للترجمة نلخصها فيما يلى :

« أنى لما نظرت فى هذه العلوم الرياضية التى منها الحساب والهيئة والهندسة ... وجدت الوقوف على كنه التحقيق المحض منها لا يكون بمجرد التقليد فيها ... لان النفوس الكاملة لا تطمئن الا باليقين الذي تسلم حججه ، بعد أن تغوص فى بحاره وتخوض لججه ولما كان ذلك لابد فيه من الرصد للاجرام العلوية ومشاهدة أمكنتها من أفلاكها ومقادير حركاتها في الازمان المختلفة .

وكان الرصد المذكور فى بلادنا وزماننا متعذرا أو متعسرا ، ولكن ما لا يمكن كله ، لا يترك كله ، بحثنا من أجل ذلك كل البحث عن أقرب الارصاد الى زماننا ، فوجدنا كتابا حفيلا عجيبا ، جامعا لكل ما يحتاج اليه الناظر فى هذه الصناعة ، بحيث لا يتوقف على غيره من الاوضاع ... مع ما اعتمده مؤلفه والتزمه من التحرير البالغ غاية الغايات ، والتوقيف على كنه العويصات وكشف الخفيات ، وتأييد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية ، والاشكال الهندسية والامثلة العددية ، والاقيسة الجبرية ، ورد الفروع الى أصولها التى بنيت عليها ، وأخذ الاقوال بدلائلها الخاصة بها ، ومقابلة المذاهب القديمة بعضها ببعض ، ثم أخذ ما وافق العيان والرصد الجديد ، والغاء ما دون ذلك مما تكذبه المشاهدة ويقوم البرهان على بطلانه

ـ الا أنه باللسان والقلم الأعجميين ، لان مؤلفه رومى من أهل باريز .

وكان من فضل الله علينا أن حضرتنا العالية بالله قد احتوت على جماعة وافرة ممن آوتهم ظلال دولتنا الشريفة المنصورة الظافرة ، **ربيناهم فى خدمتنا أحسن** تربية ، وصفيناهم لاقترابنا أكمل تصفية ، وأطلعناهم

---

(6) **كشف الظنون** ج 2 ضلع 1026 .

(7) **جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية** . ج 4 ص 157 (8) ص 217 (9) ص 434 .

لمكان التخصيص على أسرار هذه العلوم ، وغذيناهم من جنى هذه الفنون بأطيب الطعوم ، **حتى أصبحت حضرتنا العزيزة كعبة للنجباء الحذاق ، ومطافا للعلما من جميع الآفاق ، من كل عارف بالألسنة والاقلام ، متهيىء لاكتساب الكمالات بالاستعلام ، فأمرناهم بتعريب الكتاب المذكور** واخراجه من الظلمات الى النور ، فصرفوا كل عناية الى ذلك ، **ودأبوا عليه أناء الليل وأطراف النهار مدة مديدة** ، مع معاناة اكيدة ، ومشقة شديدة .

وكل ذلك بمرأى منا ومسمع ، ومحضر لنا ومجمع ، تعرض علينا كل يوم مخرجاتهم فنبالغ لها بالتنقيح والتصحيح ، ونرجع منها ما هو داع الى الترجيح ، حتى برز بحمد الله فى احسن الصور واجملها ، واتم الوجوه واكملها .

وهو مرتب الآن بمكتبة القصر الملكى تحت رقم 682م .

وذكر صديقنا الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله فى كتابه (تاريخ المغرب) (تحت الطبع) ان القنصل الفرنسى لوكونت دوسكواط ، تحدث عن المام الملك محمد الرابع باللغة الفرنسية وقيامه بتعريب بعض الكتب العلمية مثل كتب نيوتن ، فى علم الفلك ، على يد ترجمان انجليزى من مالطة اعتنق الاسلام .

وقد أكد ذلك عام 1871م (1288هـ) وزير فرنسا بطنجة طيسو .

فكم من جهود يجب أن تتوفر – يا ترى – على دراسة هذا التراث الضخم فى مختلف العصور ؟ ومقارنته بغيره ؟ قبل أن نستطيع تقييمه تقييما نزيها لا تحيز فيه ولا اجحاف ؟ نعم اننا قد بدانا السير فى تحقيق هذا الهدف الوطنى ، وخصوصا بعدما انشئت شهادة الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس .

فقد أوليت عناية خاصة لتوجيه اهتمام طلبتى من حملة شهادة الاجازة الى الاعتناء بتحقيق مخطوط مغربى ، واقترحت على بعضهم مخطوطات معينة لدراستها ، وقد نال البعض منهم شهادته بالفعل ، ولكن مما يؤسف له أن المطبعة لم تخرج لحد الآن شيئا من المطبوعات التى قاموا بدراستها . (بعد القاء هذه المحاضرة أخرجت المطبعة كتاب (الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسي) للاستاذ محمد حجي ، وما زلنا ننتظر تحقيقه لكتاب (البدور الضاوية) لسليمان الحوات) .

على أننا – مع هذا التاريخ الطويل الذي يزيد على ألف سنة ، ومع هذا الشمول لمختلف الموضوعات ومع هذا الانتشار في مشارق الارض ومغاربها شمالها وجنوبها .. ومع ضياع ما ضاع واختفاء ما اختفى – ما زلنا نحتفظ – مع ذلك كله وكثير غيره – بالآلاف من المؤلفات المغربية ، ولدينا قليل من القوائم والدراسات التى تسمح بالحديث عن الكتاب المغربى حديثا يتضمن الخطوط العريضة الكبرى ، مثل :

كتاب النبوغ المغربى فى الادب العربى للاستاذ عبد الله جنون ، ومقالات الاستاذ محمد الفاسى عن تاريخ الادب المغربى المبعثرة فى الصحف والمجلات والعلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للاستاذ محمد المنونى ، ودليل مؤرخ المغرب للاستاذ عبد السلام ابن سودة ، وسنوس العالمة للاستاذ المرحوم محمد المختار السوسي . والطب والاطباء بالمغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، وتاريخ الادب الجغرافي العربي للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، والعلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى للعالم الايطالى آلد وميبلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، وتراث العرب العلمى لقدرى حافظ طوقان وفهرس الفهارس والاثبات لعبد الحي الكتانى .

الكتاب المغربى جزء لا يتجزأ من الكتاب العربى

والملاحظة البارزة الاولى التي تبدو الباحث في الكتاب المغربى ، هي أنه وان كان يختلف عن الكتاب العربى فى المشرق ، فى أن له :

1) خطا عربيا خاصا مشتقا من الخط الكوفى القديم ، ويتميز بزيادة الحروف المعقودة على أحرف الهجاء العربى ، وبنقط الفاء بواحدة من أسفل ، والقاف بواحدة من فوق . (راجع مثلا عبد الفتاح عبادة فى كتاب انتشار الخط العربى) (10) .

---

(10) (ص 76–79) .

2) وترتيبا للحروف يختلف عن ترتيبها في المشرق .

3) وأرقاما عربية خاصة هي غير الارقام الهندية المستعملة عند عرب المشرق بل ان الموثقين بفاس لهم أرقام أخرى غير النوعين السابقين يؤرخون بها الوثائق والعقود . وكثيرا ما تؤرخ بها المخطوطات وتسمى بالقلم الفاسي . وقد خصت بالتاليف مثل كتاب أبي العباس ابن البنا المراكشي (في أعمال الحساب والزمام) وبآخره رجز في ذلك . ورسالة غير منسوبة (في أشكال الزمام والعمل به) وبأولها نظم في الموضوع (11) ومنظومة الامام أبي السعود الفاسي في 30 بيتا ، وقد شرحها أبو العباس سكيرج في (ارشاد المتعلم والناسي ، في صفة أشكال القلم الفاسي) ذكر فيه أن هذا القلم مأخوذ من القلم الرومي ، وهو مطبوع على الحجر بفاس في ثلاث ورقات كما ترجمه الى اللغة الفرنسية فيالا E. Viala بعنوان الخط الفاسي L'exposé des signes de Fès وقد طبع بالجزائر سنة 1917 .

فان الكتاب المغربي في صميمه وعمقه ـ رغم هذه الاختلافات ـ جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي .

ذلك أن المغرب ـ وان كان قد انفصل سياسيا عن الخلافة الاسلامية بالمشرق في عهد مبكر ، وانشأ له خلافة خاصة ، ـ فانه ـ من الناحية الثقافية ـ قد بقي يكون مع البلاد ذات الثقافة العربية في آسيا وافريقيا وأوربا وحدة ثقافية متينة العرى متداخلة الاجزاء ملتحمة الاطراف متشابكة الفروع والاغصان .

وهكذا كان الكتاب العربي ، من الحجاز ، أو اليمن، أو العراق ، أو ما وراء النهر ، أو بلاد العجم . أو الهند ، أو السند ، أوبخارى ، أو جاوة ، أو بلاد الروم (الترك) أو الشام وفلسطين او مصر ، أو صقلية ، أو المغرب الادنى ، أو المغرب الاوسط ، أو الاندلس ، او السودان المغربي على اختلاف أقاليمه وأقطاره ، يجد مكانة ـ الى جانب الكتاب المغربي ـ في المكتبات المغربية ، في المساجد والمدارس ، والربط ، والزوايا وفي قصور الملوك والامراء والوزراء ، والرؤساء ، وفي بيوت العلماء والاسر العلمية ، ويتداول بين أيدي القراء في فاس ، وتازة ، ومكناس ، وزرهون ، وسبتة ، وطنجة ، وتطوان ، ووازان ، والريف ، والجبل ، والشاون ، والمزمة ، والقصر الكبير ، وسلا ، والرباط ، وتادلا ، ودكالة ، وآسفي ، وأغمات ، ومراكش ، والدلاء ، ورودانة ، وآيت عياش ، وسجلماسة ، وفيكيك ، والقنادسة ، وكرزاز ، وكلزيم بوادي الساورة وسالى ، وتيميمون ، والركان ، وكنته بتوات ، وتامكروت ، وشنقيط ، وطنطان ، والساقية الحمراء ، وولاتة ، وغيرها من مختلف المراكز العلمية الاخرى بالمغرب ويتناول فيها بالنسخ والزخرفة ، وبالطبع بعد أن دخلت المطبعة الى المغرب ، وبالدرس ، والشرح والتعليق ، والرواية ، والنقد أو التقريض .

كما كان الكتاب المغربي من جهته ، ينتقل الى مراكز الثقافة العربية في المشرق والمغرب ، فيحتل مكانته بين الكتب العربية الاخرى ، مما جعل الكتاب العربي في جملته يكون وحدة متكاملة ، لا يكاد جزء منها يستغني عن بقية الاجزاء الاخرى وبذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على أتم الوجوه .

ويمكن للمرء أن يتتبع هذه الحقيقة التي أشرنا اليها في كثير من المصادر والمراجع وعلى الاخص في كتب التراجم والفهارس والرحلات وما أشبهها . وفي كتب الدراسة بالمغرب ، ما بين متون وشروح وحواش وفي الكتب التي يتدارسها أصحاب الطرق المختلفة فيما بينهم ، وفي أورادهم وأحزابهم وفي كتب المطالعة ، وفي المطبوعات المغربية وفيما نشره المغاربة من كتب خارج المغرب وكذلك في الموسيقى والاشعار التي يتغنى بها الآليون والمسمعون ليجدها في كل ذلك بارزة للعيان بكل وضوح .

المحاورات العلمية :

ومن ذلك هذا الحوار الذي كان مستمرا بين علماء المغرب والعلماء العرب في المشرق والمغرب العربيين .

ومن أمثلة ذلك ما وقع في القرن الحادي عشر الهجري بين الكوراني الشهروزي نزيل المدينة المنورة وبين علماء فاس .

فقد ألف في تصحيح قصة الغرانيق الشهيرة رسالة (اللمعة السنية ، في تحقيق الالقاء في الامنية) فرد عليه أبو عبد الله بن أبي السعود الفاسي مبينا بطلانها . فألف الكوراني (نبراس الايناسي بأجوبة أهل فاس) .

---

(11) رقم ك 1061 بالخزانة العامة بالرباط .

كما الف الكوراني في مسالة خلق الافعال محتجا لمذهب امام الحرمين ، رسالة كتبها برسم تلميذه الرحالة المغربي ابي سالم العياشي ، الذي اوردها بنصها في رحلته (ماء الموارد) (راجع ج I ص 360 و ص 429 – 443) . فرد عليه ابو عبد الله الفاسي (راجع في الخزانة العامة رقم 3II54) والمهدى بن احمد الفاسى ، وسمي هذا رده (النبذة اليسيرة ، واللمعة الخطيرة ، في مسالة خلق الافعال الشهيرة) . راجع في الخزانة العامة رقم I234 كـ .

ووجه المصريون اسئلة لفقيه فاس ابى عبد الله ابن الحسن بناني فاجاب عنها بجزء مطبوع وعند . مرور الشيخ احمد بن العربي ابن الحاج الفاسى بطرابلس الغرب في طريقه الى الحج سنة I098 تلقى عنه بعض الطلبة بيتين لشيخه الشيخ ميارة في النفيين اذا تكررا ، فاطلع عليهما تونسي مر بطرابلس آتيا من مصر فانتقدهما وارسل أحد اذكياء الطلبة الطرابلسيين انتقاداته للشيخ ابن الحاج فأذن هذا لتلميذه محمد بن محمد بن حمدون بناني فكتب (الكوكب الساطع والعقد المنظوم ، في بيان التعيين باعتبار المنطوق والمفهوم) (الخزانة العامة رقم 2008 د

28

وأنكر مفتى مصر الشيخ محمد عبده التوسل فكتب الوزاني مفتي فاس في الرد عليه (النصح الخالص) وأفتى الشيخ محمد عبده باباحة أكل ذبيحة أهل الكتاب ولو خالفوا فى ذبحها طريقة المسلمين . وقامت ضجة كبيرة فى المشرق ضده من أجل ذلك فافتى الوزانى مفتى فاس بتأييد فتوى محمد عبده .

ونشرت جريدة ثمرات الفنون ببيروت كلاما للشيخ محمد عبده حول الجبر والاختيار فكتب احمد الرهوني التطواني « تحرير المقال » .

ونشر بتونس متفقر من قسنطينة يقال لـه ابن مهنا رحلة الورتلانى وعلق عليها تعاليق طعن فيها فى المغاربة ، فالف الوزانى (السيف المسلول باليد اليمنى ، المقطوع به رأس مهنا) فعاد ابن مهنـا وألف (السيف المهند المسلول) وقال انه اختصره من رسالة كبرى التي شتم فيها الوزاني شتما فظيعا !

ومن ذلك المحاورات بين احمد البكـاي السودانى وبيـن اكنسوس المراكشى حـول الطريقتين القادريـة والتجانية فى مؤلفات عديدة بعضها مطبوع .

(12) الجبرتي : عجائب الآثار 3 ص 44 و 57

وقد عثرت فى مكتبة القصر الملكى بالرباط ضمن مجموعة على رسالة كتبها احد علماء المغرب (لم يسم فى الرسالة) الى علماء مصر عندما احتلها الفرنسيون ينتقد عليهم رضاهم بالمقام تحت الحكم الاجنبى .

ولا يبعد ان تكون من انشاء العلامة المغربي الكبير الشيخ الجيلانى السباعى الذى نـال فى المغـرب مقاما عظيما فى العلم والدين ثم جاور بالحجاز ، فلما وصـل الخبر باحتـلال الفرنسيين لمصر صـار يعظ النـاس ويدعوهم الى الجهاد ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وركبوا معه البحر الى الصعيد المصرى وحاربوا الفرنسيين فى عدة مواقع كمـا عنـد الجبرتي (I2) ثم اعتل ومرض ومات بقرب مرضه ودفن هناك بقرية يقال لها أحكاز (كما عند التهامى بن محمد الاوبيرى الحميرى في (اتحاف الخل المواطى) (خط) .

الامثال الشعبية والشعر الملحـون

ونجد فى الامثال الشعبية المغربية المتعلقة بالكتب نفس الظاهرة التى أشرنا اليها ، مثل قولهم :

مشى يقرأ بن السبكى ، وخلا الجرومية تبكي !

اللى حب بقرا بالنيا ، يقرا سيدى خليل والالفيا !

سيدى خليل والرسالا . ما خلـوا حتى مسـالا (يريدون رسالة ابن أبي زيد القيروانى)

الغزالى . ما يخلى قلب سالى !

بع الدار ، واشرى لذكار . يريدون اذكار النووى .

كما تجد ذلك فى الشعر الشعبى (الملحون) ومن ذلك قصيدة (الحراز) لمحمد الامغارى حيث ياتى البطل أخيرا الى الحراز فى صورة فقيه قارئ للكتب المختلفة ، مثل لسنوسية ، والجرومية والالفية ، والموطـا والبخـارى والعينى ومسنـد احمـد وخليـل والخرشى والزرقانى والرهونى والرسالة ، وبذلك خدع البطل الحراز القارئ ببيان لحيال لكن انداز . كما يقول الشاعر في (الحربة) (اللازمة) .

الكتـاب المغربى خـارج المغرب

وكما سـد الكتاب المغربـى الحاجة المحليـة فى موضوعه ، متعاونا على ذلك مع الكتاب العربى الوارد من خارج المغرب ، فان قسما مهما من الكتـاب المغربي تجاوز النطاق المحلى وانتشر خارج المغرب ليسد حاجة

ماسة في المراكز العلمية الاخرى ، وبذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على أتم الوجوه .

ومن أمثلة هذا القسم :

مقدمة ابن أجروم الفاسى .

وكراسة الجزولى المراكشى فى النحو وشرح المكودى على الفية ابن مالك ، والشفا للقاضى عياض السبتى دفين مراكش ، وبقية مؤلفاته ، كالمدارك ، والمشارق والتنبيهات ، والاكمال ، والالماع ، وبغية الرائد والفهرسة .

وانوار البروق فى تعقب مسائل الفروق لابن الشاط السبتى .

ومناهج التحصيل من نتائج لطائف التأويل (شرح المدونة لابى الحسن على بن سعيد الرجراجى المعروف بابن تامسرى (ق7) .

وبيان الوهم والايهام ، الواقعين في كتاب الاحكام لابن القطان الفاسى دفين سجلماسة .

ونزهة المشتاق ، للشريف الادريسى السبتى .

ورحلة ابن بطوطة الطنجى .

والقرطاس لابن ابى زرع الفاسى

ووصف افريقيا للحسن الوزان الفاسى المعروف عند الاوربيين بليون الافريقى .

وجامع المبادىء والغايات فى علم الميقات لابى على الحسن المراكشى .

والمعجب فى اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى نزيل بغداد .

ورحلة ابن رشيد السبتي دفين فاس (ملء العيبة)

والذيل والتكملة لكتابى الموصول والصله لابن عبد الملك المراكشى .

وحاشية ابن الطيب الشرقى الفاسى نزيل المدينة المنورة ودفينها على القاموس المحيط للفيروز بادى .

وكتاب الوشاح ، وتثقيف الرماح . فى رد توهيم المجد الصحاح ، لعبد الرحمن بن عبد العزيز التادلي المدنى .

وديوان صفوة الادب ، لابي العباس الجراوي التادلى الفاسى .

وارجوزة ابن الياسمين الفاسى فى الجبر ، ودلائل الخيرات لابن سليمان الجزولى دفين مراكش .

وكتاب (المدخل) لابن الحاج الفاسى دفين مصر .

والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري الرباطي التازى .

ومورد الظمآن للخراز الفاسي وشرح ابن عاشر

ورائية الشريشى السلوى المراكشى ثم المصرى .

وشرح ابن عباد الرندى ثم الفاسى على حكم ابن عطاء الله السكندرى .

وأحزاب أبى الحسن الشاذلى المغربى دفين مصر .

ومؤلفات ابن البنا المراكشي وخصوصا تلخيص أعمال الحساب ، ومنهاج الطالب فى تعديل الكواكب .

ومؤلفات ابن غازى المكناسى ثم الفاسى وخصوصا المنية ، والفهرسة ، وشفاء الغليل وتكميل التقييد وحواشى البخارى .

ومؤلفات زروق الفاسي دفين ليبيا وخصوصا شروح الحكم .

ومؤلفات على بن ميمون الغمارى دفين لبنان ، مثل بيان غربة الاسلام على يد صنفى المتفقهة والمتفقرة فى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاعجام .

ومؤلفات محمد بن سليمان الرودانى نزيل المدينة المنورة ودفين دمشق الشام وقد طبع بعضها فى الهند .

ومؤلفات محمد بن ادريس الميسورى دفين عسير باليمن .

ونظم المرشد المعين لابن عاشر الفاسى وشرحه لميارة . وشرح التاودي ابن سودة الفاسي على تحفة ابن عاصم الاندلسى .

وحاشية بنانى الفاسى على شرح الزرقانى على مختصر خليل .

وحاشية الرهونى على كل من المختصر وشرح الزرقانى وحاشية بنانى .

والابريز لاحمد بن مبارك السجلماسى .

وجواهر المعاني لحرازم برادة الفاسي .

والوسيط في ادباء شنجيط لاحمد الامين الشنقيطي نزيل القاهرة .

ومؤلفات محمد محمود الشنقيطى نزيل القاهرة .

والاستقصا للناصرى السلوى .

وسلوة الانفاس لابن جعفر الكتانى .

والرسالة المستطرفة لـه .

واتحاف اعلام الناس لابن زيدان العلوى المكناسى .

والفكر السامى للحجوى الفاسى نزيل الرباط . والتراتيب

الادارية لعبد الحي الكتاني .
وفهرس الفهارس لـه .
والنبوغ المغربي لعبد الله جنون الفاسي الطنجي .
والنقد الذاتي لعلال الفاسي نزيل طنجة والرباط .
وتاريخ الحركات الاستقلالية له .
ودليل مـؤرخ المغرب لعبـد السلام ابن سـودة الفاسي .
وغير ذلك كثير .

وذكر الشيخ عبد المجيـد المنالي الزبادي الفاسي في (افادة المرتاد ، في التعريف بابن عباد) ان رسائـل ابن عباد الرندي ثم الفاسـي لما بلغت لابي عبد اللـه البلالي المصري صاحب اختصار الاحياء وغيره جعلهـا على رأسه وجعل يقول : انا عبد لابن عباد ! (الخزانة العامة رقم (471 ونسخ أخرى) .

وذكر اليفرني في (الصفـورة) (1) أن كتـاب (نتائج التحصيل ، في شرح التسهيل) لمحمد المرابط الدلائي الفاسي (ق 11) لما بلغ القاهـرة تنافس فيـه الطلبة حتى بيع بنحو عشرين دينارا .

تقسيـم الكتـاب المغربـي :

وهكـذا نستطيع أن نقسـم الكتـاب المغربي الى قسمين :

1) القسم الاول الكتاب الذي ألفـه المغاربـة في المغرب أو خارجه ، سواء بقيت نسخه في المغرب أو لم يبق الا خارجه .

ويلحق بهذا القسم الكتاب الذي اقترح تأليفه ملوك وأمراء ورؤساء مغاربة على مؤلفين غير مغاربة ، سواء نزحوا عن بلادهم الى المغرب أو لم يصلوا الى المغرب بالمـرة .

2) والقسم الثاني الكتاب الذي انتقل الى المغرب من خارج المغرب ، فاحتفظت به المكتبة المغربية وتبنته ، واتخذه المغاربة كتاب دراسـة ، ومراجعـة ، وخدموه بالشرح والتعليق واعتمدوه في الفتوى والقضاء والتوجيه والارشاد والوعظ ، وتولوا طبعه داخل المغرب وخارجه وكذلك ما انفردت به المكتبة المغربية ، ولم يبق له أثر في وطنه الاصلي .

وأمثلة هذا النوع تفوق الحصر وتستعصي على الاستقصاء ، ومنها :

الغية ابن مالك الاندلسي دفين دمشق .
وأوضح المسالك لابن هشام المصري .
وأم البراهين للسنوسي التلمساني .
ورسالة ابن ابي زيد القيرواني .
ومختصر خليل المصري .
وشرحاه : للخرشي والزرقاني ، المصريين .
وشرح الحطاب المكي .
وتحفة ابن عاصم الغرناطي .
ونظم السلم للاخضري البسكري .
وجمع الجوامع لابن السبكي .
وشرحه للمحلي ، وكلاهما مصري .
وتلخيص القزويني الشامي المصري مفتاح العلوم للسكاكي الخوارزمي .

وشرحاه لسعد الدين التفتازاني (من خراسان) : المطول والمختصر .

وكشف الاسرار في الحساب للقلصادي الاندلسي دفين تونس .

والرسالة الفتحيـة في الاعمـال الجيبيـة لسبـط المارديني المصري .

وحرز الاماني للشاطبي الاندلسي دفين مصر .
وحكم ابن عطاء الله السكندري .
وبردة المديح للبوصيري المصري .
وهمزيته .
وأربعون النووي الدمشقي .
وصحيح البخاري دفين سمرقند .
وشرحاه : فتح الباري للعسقلاني المصري .
وارشاد الساري للقسطلاني المصري .
وصحيح مسلم النيسابوري .
وشرحاه : للنووي الشامي .
والابي التونسي .
وشمائل الترمذي الخراساني .
وموطأ مالك المدني
وشرح الزرقاني المصري عليها .

---

(13) ص 180

ومقامات الحريرى البصرى .
والكشاف للزمخشرى .
وتفسير ابن عطية الاندلسى .
وأحكام عبد الحق الاشبيلى .
والجامع الكبير للسيوطى .
واحياء علوم الدين للغزالى وشرحه للشيخ مرتضى الزبيدى المصرى .

وكتاب سيبويه .
وديوان المتنبى .
والتسهيل لابن مالك .

وتحرير أصول الهندسة لاوقليدس تاليف النصير الطوسى ،
وتاريخ ابن خلدون .
ومختصر ابن الحاجب الفقهى .
وشامل بهرام .
والقاموس المحيط للفيروز بادي .
وتهذيب البرادعى لمدونة سحنون .
وكتاب التلقين للقاضى عبد الوهاب .

وقد كانت الكتب تصل الى المغرب بواسطة الرحالين من أهل العلم ، وخصوصا الحجاج ، وبواسطة مبعوثين خصوصيين يبعثهم الملوك الى اسبانيا ومصر واصطنبول لاستيراد الكتب بصفة خاصة ، وتتضمن كتب الرحلات والرسائل الرسمية أخبارا مستفيضة فى هذا الموضوع ، كما تتضمن كتب التراجم اسماء من أدخلوا كتبا معينة الى المغرب لاول مرة .

كمدونة سحنون (14) والنوادر ، والمختصر لابن أبى زيد القيروانى (15) ومختصر ابن الحاجب الفرعى (16) وشرح المرادى على الفية ابن مالك (17) ومختصر خليل (18) وشامل بهرام ، وشرحه على المختصر ، وحواشى التفتزانى على العضد وابن هلال على ابن الحاجب ، (19) وشرح الخرشى على المختصر (20) .

للكتاب المغربى طابعه الخاص

الملاحظة الثانية التى تلفت نظر الباحث فى الكتاب المغربى ، هي انه ـ ضمن وحدة الكتاب العربى والثقافة العربية ـ له شخصيته المتميزة وطابعه الخاص .

فهو ـ وقد فتح صدره الاستفادة من الكتاب العربى الوارد من مختلف الاقطار ـ استطاع أن يتفوق حينا وأن يجمع بين محاسن تجربتين أو تجارب حينا ، وان يقوم بدور الحكم احيانا اخرى .

ولم يكن الايمان العميق الراسخ للمؤلف المغربى بوحدة الثقافة العربية بين شرق العروبة وغربها ايمانا سلبيا يأخذ ولا يعطي ، ويتقبل كل ما يرد من خارج المغرب تقبل التقديس والتسليم من غير بحث ولا تمحيص ، بل كان على العكس من ذلك ايمانا ايجابيا يستفيد الى أقصى حد ممكن من الكتاب الوارد على المغرب مع اخضاعه للنقد والتمحيص والتهذيب والترتيب .

فهو يختصر ما هو مطول ، ويهذب ويرتب ما هو فى حاجة الى تهذيب وترتيب ويذيل ما يحتاج الى تذييل ، وينظم المنثور ليسهل حفظه ، ويشرح المتن ليسهل فهمه، ويحشى على الشرح ، ويتعقب ما يتوقف على تعقيب . ويجمع بين كتابين أو اكثر فى كتاب واحد اذا كان فى كل واحد منهما ما ليس فى الآخر .

فقد نقل المقرى فى (ازهار الرياض) عن تعليق لبعض المتاخرين :

ان صناعة التاليف انتهت فى علماء المغرب على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ العلماء في وقته ابن البنا الازدى المراكشى فى جميع تصانيفه (21) .

وان القدماء كان لهم اصطلاحان فى تدريس المدونة : اصطلاح عراقى واصطلاح قروى ـ وبعدما أوضحهما قال: وقد سلك القاضى عياضى فى (تنبيهاته) مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين (22) .

ونقل الامام أبو اسحاق الشاطبى عن شيخه علامة فاس ومفتيها أبى العباس القباب انه كان يقول : ان ابن

---

(14) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص 3،1 رقم 263 (15) ابن فرحون : الديباج ص 163
(16) احمد بابا : نيل الابتهاج ص 168 (17) ابن القاضى : درة الحجال ج ا ص 688 (18) نيل الابتهاج : 292 درة الحجال 293 (19) نيل الابتهاج : 3،6 (20) المهدى الوزانى : السيف المسلول باليد اليمنى ص 8 طبع حجر بفاس
(21) ج 3 ص 23 (22) ج 3/21ـ22

بشير وابن شاش وابن الحاجب أفسدوا الفقه ويأمر أصحابه بالتحامى عنهم .

وقال احمد بابا السودانى في (نيل الابتهاج) : ويذكر أنه لما حج اجتمع فى تونس بابن عرفة فأوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصرة الفقهى ، وقد شرع فى تأليفه ، فقال له القباب : ما صنعت شيئا ، لانه لا يفهمه المبتدى ، ولا يحتاج اليه المنتهى ! ويقال ان كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة فى أواخر المختصر ولين الاختصار (23) .

وكان الفكر المغربي اذ ذاك لا زال لم يتسم بوباء الاختصار المخل الوارد من الشرق .

ولا يؤثر فيما أردناه من ايراد هذه القصة ما الفاه عبد الواحد الونشريشى بخط والده ابى العباس ، ونقله المقرى فى (أزهار الرياض) من انها لا رأس لها ولا ذنب قائلا عن القباب : وحاشاه من ذلك ! (24)

فقد قال الونشريسى : ان بعض القاصرين من طلبة فاس يقولون عن مختصر ابن عرفة الفقهى : ما يقول شيئا ! وان ملوك المغرب حبسوا بخزانتي القرويين والاندلسيين من مختصر ابن عرفة نسخا عديدة ، ثم لا يعرج عليها للمطالعة أحد من طلبة الحضرة (فاس) شتاء ولا صيفا (25) .

ومن الواضح أن انتقاد القباب فى القصة منصب على ما فى كلام ابن عرفة من تعقيد لا ينازع فيه أحد ، حتى قيل ان ابن عرفة نفسه لم يفهم بعض عباراته ، مثل تعريفه للاجارة فقد ذكر الرصاع التونسي في (شرح حدود ابن عرفة) أنه وقف بخط بعض أشياخه من تلامذة ابن عرفة : أنه لما قرر ذلك اللفظ بمجلس ابن عرفة أشكل فهمه عليه وعلى أهل مجلسه ، فافترق المجلس من غير جواب ، فلما كان من الغد ذكر الشيخ أنه اهتم غاية الاهتمام ، وأنه فكر في ذلك جالسا ومضطجعا فلم يذكر من ذلك شيئا ، قال : فنويت أن أصلي ركعتين وارغب اليه تعالى في تيسير فهمه ، ثم فتح الله علي سبحانه بفهم قولي : بعضه يتبعض بتبعضها ! (ص 393 طبع تونس)

ونقل عن الشيخ عيسى أن ابن عرفة في آخر عمره كان يصعب عليه فهم كلامه (ص 394)

وذكر في أول شرح الحدود عن كتب ابن عرفة : « أن المبرز من فقهاء الزمان من يفك رموزها ، ويفهم اشاراتها ، ويتفاخرون بذلك ! » (26) .

وقد سمى ابن غازى كتابه (اتحاف ذوى الذكاء والمعرفة ، بتكميل تقييد ابى الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة) .

وقال الفقيه المصرى المعاصر محمد سلام مدكور في رسالته (المقاصة في الفقه الاسلامي) عن تعريف ابن عرفة للمقاصة : وهذا التعريف المعقد يشبه أن يكون نوعا من الرطانة ، ولا يكاد يفهم بدون ارشاد وايضاح ! (ص 9) .

أما من الناحية الفقهية فامامة ابن عرفة ومكانته ليست عند المغاربة محل نقاش أو خلاف .

ولكنهم شنعوا عليه تحامله على شيخه ابن عبد السلام الهواري التونسي : قال الامام المسناوي الفاسي فى كتابه (صرف الهمة ، الى تحقيق معنى الذفة) بعدما أجاب عن اعتراض لابن عرفة على تعريف لشيخه ابن عبد السلام ما نصه : « وهذا ما لا يكاد يخفى على من دون الشيخ ابن عرفة من الاصاغر ، فضلا عمن هو مثله من الائمة الاكابر .

غير أن ولوعه ـ رحمه الله تعالى ـ بمناقشة شيخه المذكور ، فى النقير والقطمير ، وشغفه بمضايقته والانتقاد عليه فى الجليل والحقير ، كما هو معلوم من حاله لمطالع كلامه ، ومتأمل مقاله ، غطى عليه سنا اشراقه ، وأمر لديه حلو مذاقه !

حبك الشيء يعمى ويصم

ما ذاك الا لمضمرات يعلمها العالم الرقيب !

وفى أجوبة الامام ابى عبد الله القورى عن السبعة والعشرين سؤالا الواردة عليه من تلمسان من صاحب المعيار : أن الناس لم يسلموا لابن عرفة من اعتراضاته على ابن عبد السلام الا القليل .

وما أحوجهما الى وضع كتاب انصاف بينهما ، كما وضع بين الزمخشرى وابن المنير (27) .

---

(23) ص 73 (24) ج 3 ص 35 (25) نفس المصدر .
(26) ص 3 طبع تونس .
(27) رقم 194 د بالخزانة العامة بالرباط

ومن ذلك ما ورد في كتاب (بيان غربة الاسلام ، على يد صنفي المتفقهة والمتفقرة فى مصر والشام ، وغيرهما من بلاد الاعجام) لعلي بن ميمون الغماري نزيل تركيا والشام ودفين لبنان ، من كلام قاس جدا عن مؤلفي بلاد الشام في عهده ، (910هـ 1504م) اتهمهم فيه بأنهم لا معرفة لهم بقواعد التأليف أصلا ، ولا بالصالح والفاسد منه ، بل يعمدون الى مطالعة الكتب ، فينقلون منها ، على مقتضى فهمهم ، ويقيدون ذلك ، ولا يعرفون حقيقته واصطلاحه ، ولا ما ينتج عن ذلك (28) أضربنا عن نقله بنصه لطوله .

وقال الامام المسناوى فى (صرف الهمة) عن شرح الابى التونسى لصحيح مسلم : انه شهير بعدم التحرير .

وقال عن شرح الرصاع التونسي لحدود ابن عرفة : وكم له فى شرح الحدود من محلول الكلام وساقطه ، كما لا يخفى على ناقده ومخالطه .

والله يعلم أنى لم أقل هذا مضما ، بل لافادة الطالب علما .

وما علي اذا ما قلت معتقدى
دع الجهول يظن الحق عدوانا

ومن الفكاهات التى يتندر بها فى هذا المعنى ، أن فقيها مغربيا ـ لعله الشيخ بنانى دخل القاهرة ودرس بالازهر الشريف فوقع عليه اقبال كبير ، أثار حسد شخص قليل الحياء ، حسب التعبير المغربى فسأل الشيخ: لماذا لم يؤلف المغاربة كتبا دراسية خاصة بهم ، وبقوا عالة على مؤلفات المشارقة فاستفز الغضب الشيخ المغربى وأجاب : شغلهم اصلاح أخطائكم عن التفرغ لتأليف كتب خاصة بهم .

والواقع أن ما قلناه عن وحدة الكتاب العربى وتكامله جعلت كثيرا من الكتب غير المغربية لا تتم الاستفادة منها الا بضميمة الكتاب المغربي اليها .

فهذا مثلا ـ كتاب (الاحكام) فى الحديث ، لعبد الحق ابن الخراط الاشبيلى دفين بجاية (581هـ ـ 1185م) الذى بناه على (كتاب المنتخب المنتقى) لصاحبه ومفيده الحافظاحمد بن عبد الملك اللبلى الظاهري الشهيد (ت 549هـ 1155م) (29) .

استدرك عليه معاصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الفاسي المعروف بابن الصيقل (ت 608هـ 1212م) أحاديث كثيرة في أكثر الكتب ، رأى أن عبد الحق أغفلها ، وأنها أولى بالذكر مما ذكره عبد الحق فى (الاحكام) .

قال ابن عبد الملك المراكشى فى (الذيل والتكملة) : « دل ذلك على حسن نظره وجودة اختياره » (30) .

كما تصدى له الحافظ أبو الحسن ابن القطان على ابن محمد الكتامي الفاسي دفين سجلماسة (ت 628هـ 1232م)في كتابه الحفيل : (بيان الوهم والايهام ، الواقعين في كتاب الاحكام) فانتقد عليه : أحاديث أوردها ولم يجد لها ابن القطان ذكرا ، أو عزاها الى مواضع ليست فيها ، أو ليست كما ذكر ، وأحاديث أوردها على أنها متصلة وهي منقطعة ـ وذكر ابن القطان لانقطاعها عدة مدارك ـ وأحاديث أوردها على أنها موقوفة ، وهي فى المواضع التي نقلها منها مرفوعة ! وأحاديث أغفل نسبتها الى المواضع التى أخرجها منها . وأحاديث أوردها على أنها مرفوعة وهي موقوفة أو مشكوك فى رفعها ، وأحاديث أبعد النجعة فى ايرادها ومتناولها أقرب ، وأشياء متفرقة تغيرت فى نقله ـ أو بعده ـ عما هي عليه ، ورواة تغيرت أنسابهم وأسماؤهم فى نقله عما هي عليه .

قال ابن الزبير فى (صلة الصلة) عن (بيان الوهم والايهام) : « وهو من أجل التواليف فى بابه وان كان لا يخلو من بعض تعسف وتحامل ! » (31) .

وذكر ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) أن قاضي فاس الحافظ ابن المواق : أبا عبد الله محمد بن يحيى (ت 642) ـ 1244 ـ 45م له تعقيب على كتاب شيخه أبى الحسن ابن القطان : (بيان الوهم والايهام) ظهر فيه ادراكه ونبله ، ومعرفته بصناعة الحديث واستقلاله بعلومه واشرافه على علله وأطرافه ، وتيقظه ، وبراعة نقده واستدراكه .

---

(28) رقم 2123 ك بالخزانة العامة بالرباط
(29) ابن الابار : التكملة ج 1 رقم 162 .
(30) جزء الغربا. 97ـ98 ، (31) ص 132 طبع الرباط

قال ابن عبد الملك : « وقد عنيت بـ (الجمع بين هذين الكتابين) مضافين الى سائر احاديث (الاحكام) وعلى ترتيبها . (وتكميل ما نقص منها) فصار (كتابي هذا) من انفع المصنفات وأغزرها فائدة ، حتى لو قلت : انه لم يؤلف في بابه مثله لن أبعد ! (32) .

وسمى الحافظ ابن رشيد الفهري السبتي دفين فاس (ت 721هـ) 1321 ـ 22م في رحلته الحفيلة (ملء العيبة) كتاب ابن المواق : (كتاب المآخذ الحمال ، عن مآخذ الاغفال في شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم والايهام من الاخلال والاغفال ، وما انضاف اليه من تتميم واكمال) .

وقال : ان المؤلف تولى اخراج بعضه من المبيضة ، ثم اخترمته المنية ، ولم يبلغ من تكميله الأمنية ، قال ابن رشيد : فتوليت تكميل تخريجه ، مع زيادة تتمات ، وكتابة ما تركه المؤلف بياضا (33) .

ولكنا مع الاسف لم يصلنا ، لا كتاب ابن الصيقل ولا كتاب ابن المواق ، ولا كتاب ابن عبد الملك ، ولا كتاب ابن رشيد ! وتلك صورة من نكبات المكتبة المغربية .!

وهذا كتاب جمع الجوامع في الحديث للسيوطي المعروف بالجامع الكبير ، الذى قصد مؤلفه به استيعاب الاحاديث النبوية ، كما قال في خطبته ، ذكر الشيخ مرتضى الزبيدى في معجم شيوخه أن مجيزه الحافظ أبا العلاء ادريس العراقي الفاسي (ت1183 أو 84هـ) 1769 ـ 71 م لما قرأ الجامع الكبير استدرك عليه نحو عشرة آلاف حديث كان يقيدها في طرة نسخته ، بحيث لو نقل ذلك في كتاب جاء مجلدا (34) .

وهذا كتاب (انور البروق في أنواء الفروق) لشهاب الدين القرافي الصنهاجي المصرى ، الذى يعتبر أهم كتاب وصل الينا في القواعد والفروق في المذهب المالكي والذى قال عنه ابن فرحون في الديباج : انه لم يسبق الى مثله ، و لاأتى أحد بعده بشبهه (35) .

تصدى له ابو القاسم ابن الشاط السبتي في كتاب ادرار الشروق ، على انواء الفروق) قائلا عن القرافي : (انه ما استكمل التصويت والتنقيب ، وما استعمل التهذيب والترتيب) فوضع ابن الشاط كتابه مصححا لما اشتمل عليه كتاب القرافي من الصواب ومنقحا لما عدل به عن صوابه (36)

وقد تلقى المالكية تعقبات ابن الشاط بالقبول ، حتى قالوا : عليك بفروق القوافي ولا تقبل منها الا ما قبله ابن الشاط ! كما عند الشيخ الامير المصرى المغربى الاصل في حواشيه (ضوء الشموع) على شرحه لكتابه (المجموع) في الفقه المالكي (37) .

وقال أبو سالم العياشي في رحلته : ان ذلك من المستفيض عند المتأخرين (38) .

وهذا مختصر خليل المصري الذي فتن المغاربة فتنة شديدة ، حتى انهم جعلوه احزابا كما حزب المسلمون كتاب الله ، وجعلوا محراب جامع القرويين محلا يتحلق حوله من يستظهرون مختصر خليل ، فيتلون منه قدرا معينا كل يوم ، كما يفعل من يستظهرون (كتاب الله) ! بل ان الراتب الشهرى لمن يتلون حزب المختصر كان يفوق راتب من يتلون حزب القرآن عشرين ضعفا !

ولكنهم لاحظوا عليه : انه لفرط الايجاز كاد أن يعد من جملة الالغاز (39) فوضعوا عليه عشرات الشروح والحواشي والتعاليق وناهيك بالشرح الحفيل على معاملاته للفقيه الكبير أبى على ابن رحال ، في حوالي عشرين مجلدا ، أما العبادات فقد اكتفى عن شرحها بشرح الحطاب المكى .

وترجم (المختصر) الى الشلحة محمد بن على الهوزالى وشرح الترجمة بالشلحة أيضا لحسن بن مبارك التمنرتي البوعقيلي .

ونظم (المختصر) بالعربية أبو القاسم الفيجيجيى في (نظم الآلى الحسان) (40) .

وكذلك اعتنى المغاربة باستيراد ما وضع على

---

(32) جزء الغربال 147ـ148

(33) مل، العيبة الجزء 5 الورقة 9 مخطوطة الاسكوريال ونقله أبو سالم العياشي في رحلته (ماء الموائد) ج 2 ص 248ـ249 .

(34) فهرس الفهارس ج 2 ص 201 الاسكوريال ونقله ابو سالم العياشي في (رحلته) ج 2

(35) ص 64 (36) ص 3ـ4

(37) ج 1 ص 377 (38) ج 2 ص 270 (39) محمد الطالب ابن الحاج : الازهار الطيبة النشر في ذكر المبادى العشر ص 179 (40) محمد المنوني : مكتبة الزاوية الحمزاوية ص 31

(المختصر) من شروح وحواش خارج المغرب وتعقبوها هي الاخرى .

فابن غازى اهتم فى كتابه (شفاء الغليل . بحل مقفل خليل) ببيان أغلاط بهرام المصرى فى شرحه على المختصر .

وابن عاشر بالغ فى (حاشيته على الشرح الصغير للنتائى المصرى) فى الانكار عليه .

وقال أبو العباس الهلالى فى (شرحه لخطبة المختصر) : ومن الكتب التى لا يعتمد على ما انفردت به شرح العلامة الشهير .... الشيخ على الاجهورى على المختصر ، كما ذكره تلميذه العلامة النقاد أبو سالم .... عبد الله العياشى فى تاليفه (القول المحكم ، فى عقود الاصم الابكم) وأشار الى ذلك فى (رحلته) (41) .

ومن مارس الشرح المذكور ، وقف على صحة ما قاله تلميذه المذكور ....

ثم قال الهلالى : وما قيل فيه يقال فى شرح تلامذته واتباعه من المشارقة كالشيخ عبد الباقي الزرقاني ، والشيخ ابراهيم الشبرخيتى والشيخ محمد الخرشى لانهم يقلدونه غالبا .

هذا مع أن الشيخ عليا رحمه الله حرر كثيرا من المسائل أتم تحرير ، وقررها أوضح تقرير ، وحصل كثيرا من النقول احسن تحصيل ، وفصل مجملات ابين تفصيل ... فشرحه كثير الفوائد لمن ميز حصباءه من دره ، ولا يطويه على غره !

وقد سئلت بالجامع الازهر من القاهرة عن شرح تلميذه الشيخ عبد الباقى الزرقانى فقيل لي : ما رايك فيه ؟ فقلت لهم : لا ينبغي للطالب أن يترك مطالعته لكثرة فوائده ، ولا أن يقلده فى كل ما يقول أو ينقل لكثرة الغلط فى مقاصده (42) انتى كلام الهلالى مختصرا .

وقد وضع كل من أبى على ابن رحال ، والسلطان المولى سليمان ، والفقيه ابن عبد الرحمن والمهدى ابن سودة ، وبدر الدين الحمومى والمهدى ابن الحاج حواشى على شرح الخرشى .

كما وضع كل من الشيخين التاودى ابن سودة ومحمد بن الحسن بناني حواشي على شرح الزرقاني ، الذى قال عنه : انه كثيرا ما ينزل النقل فى غير محله ، ويلحق الفرع بغير أصله (43) .

ثم وضع الشيخ الرهونى حاشيته على كل من المختصر وشرح الزرقانى وحاشية بنانى.

قال الشيخ الطالب ابن الحاج فى كتاب (الازهار الطيبة النشر) : ولعمري ان كلا من هذه الحواشي الثلاثة قد أتى صاحبها فيها من التحريرات بالعجب العجاب ، وذلك مما لم يسهل للأكابر من المسائل اطلعاب (44)

وهكذا صار كلام بنانى والرهونى هو القول الفصل فى تحرير المذهب المالكى بحيث اذا نص خليل على حكم فقهى فى مختصره الذى قال انه مبين لما به الفتوى ، ووافقه عليه الزرقانى تبعا لشيخه الاجهورى ، فانه لا يكون فقها مسلما الا اذا أقره بنانى والرهونى ولو بالسكوت ، أما اذا اعترضاه فلا عبرة بكلام خليل والزرقانى !

ولا عجب فى ذلك ، فقد عنى المغاربة بالدراسات الفقهية القانونية عناية فائقة ، قرون عديدة ، اذ كانت فاس تمثل المركز السادس من مراكز الدراسات المالكية ويشمل نفوذها الثقافي المغربين الاوسط والاقصى ، كما عند مؤرخ المذهب المالكى محمد مخلوف التونسى فى (شجرة النور الزكية) (45) ولا يخفى أنه يقصد بالمغرب الاقصى ما يشمل الاقاليم السودانية .

وكلمة فقيه ـ عند المغاربة ـ تطلق على من يعرف القراءة والكتابة ، وعلى المعلم ، والمدرس ، والموثق ، وامام الصلاة ، والمحتسب ، والمفتى ، والقاضى ، والسفير ، والوزير ، ولا يفوقها من الفاظ التعظيم والاحترام عندهم الا كلمة شيخ التى تقال لشيخ الجماعة ولشيخ التربية الصوفية ، وكلمة شريف التى تطلق على من كان من ال البيت النبوى .

ولعل الميدان الفقهى القانونى باقسامه المختلفة ، وفروعه المتعددة ، هو أهم ميدان تفوق فيه الكتاب المغربى تفوقا كبيرا لا من ناحية كثرة المؤلفات التى تفوق الحصر

---

(41) ج 2 ص 373 نقلا عن شيخه أبى بكر السكتانى المراكشى
(42) ص 7 الملزمة 10 طبع حجر بفاس
(43) هامش شرح الزرقانى ج 1 ص 2 .
(44) ص 180 (45) ص 103 .

فقط ، ولكن من ناحية الكيف ايضا .

فقد عرف الكتاب الفقهي المغربي ـ في الغالب ـ بالتحرى فى النقل ، والتعمق فى البحث ، والاصالة فى التفكير ، والاهتمام بمشاكل الحياة الواقعية ومحاولة ايجاد الحلول العملية المناسبة لها .

وذلك فى نطاق المذهب المالكي الذى اختاره المغاربة لانفسهم مذهبا ، والتزموه وتعصبوا له ، وجمدوا عليه . ولم يسمحوا لغيره من المذاهب الفقهية الاسلامية بالوجود معه ، وتاثروا به فى حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم ، مما كان له آثاره المختلفة التى لا مجال للحديث عنها الآن .

ولم يكتف المغاربة بهذه الموسوعات الفقهية الكبرى ذات المجلدات الضخمة العديدة والتى يحاول أصحابها فيها أن يستقصوا أحكام جميع المسائل الفقهية سواء كانت واقعية أو مفروضة . مع ايراد نصوص الاقدمين واختلافات الشارحين فى فهمها ، والترجيح بين الفهوم المختلفة .

بل انهم ـ الى جانب ذلك ـ اهتموا بالكتب التي تلتزم المسائل العملية الكثيرة الوقوع ، ومن ذلك ـ مثلا ـ شروح رجزية ابن عاصم الاندلسى (تحفة الحكام) كميارة ، وابن سودة ، والتسولي الفاسيين ، وغيرهم .

ويمتاز شرح ميارة بالتحرير وايراد نصوص الاقدمين ، الامر الذى يكسب الطالب ألفة لتعابير الاقدمين واصطلاحاتهم ، ويسهل عليه بالتالى الاستفادة من أمهات الكتب الفقهية .

ويمتاز شرح ابن سودة بالاختصار والتحرير والاعتماد على آخر ما استقر عليه رأي فقهاء المالكية ، مما جعله كتاب دراسة فى القرويين والزيتونة بتونس وغيرهما .

ويمتاز شرح التسولي بالتحرير والاهتمام بالنوازل الواقعية والتوسع فى الموضوع من غير افراط .

ومن الموضوعات الفقهية التى برز فيها الكتاب المغربي تبريزا فائقا موضوع (النوازل) أو (الفتاوي) أو (الاجوبة) فقد كان ملوك المغرب ـ مع أن الكثير منهم كان من كبار الفقهاء ـ يستفتون الفقهاء فيما يعرض لهم من مشاكل ويلتزمون ما يفتى به الفقهاء .

واستفتاء ملوك الدولة العلوية الفقهاء في مشاكل السياسة الداخلية والخارجية واحتجاجهم بفتاوى الفقهاء فى مفاوضاتهم الدبلوماسية مما سارت بحديثه الركبان .

كما كان بجانب القاضى مفت خاص يعين رسميا بظهير سلطاني يستشيره القاضي في النوازل المهمة ، كما يستفتيه الناس فى شؤونهم الدينية ، وكانت له بالقرويين مقصورة خاصة ، كما ان بها مقصورة للقاضى، ومقصورة للخطيب وغريفة للموقت .

وكذلك كان المتداعون يستفتون الفقهاء فى نوازلهم ، ويدلون بهذه الفتاوى للمحكمة لبيان احقية ما يدعون . ومع مرور الايام يجتمع للفقيه عدد من الاجوبة الصادرة عنه ، فتارة يجمعها بنفسه فى كتاب خاص ، وتارة يجمعها غيره من تلامذته أو أولاده .

ومن ذلك مثلا كتاب (الدر النثير ، في أجوبة أبي الحسن الصغير) و (الاجوبة الكبرى) و (الصغرى) لابى السعود الفاسى (وأجوبة) المسناوى ، وابن سودة ، والمجاطى ، والعلمى وبردلة ، وابن هلال ، والعباسى ، وجنون ، وغيرهم .

وفى بعض الاحيان لا يقتصر الجامع على أجوبة فرد واحد ، بل يتصدى لجمع أجوبة كثير من الفقهاء المالكية على اختلاف بلدانهم وعصورهم .

ومن أشهر هذه المجموعات وأهمها وأفيدها كتاب (المعيار) للونشريشى التلمسانى نزيل فاس وعالمها ومدرسها ومفتيها ، فقد وقف بفاس فى مكتبة العلامة القاضى محمد بن الغرديس على فتاوى فاس والاندلس ، وكانت مكتبته محتوية على تصانيف الفنون فاستعان بها الونشريسى فى تاليف (المعيار) . كما فى فهرسة المنجور ، ونقله احمد بابا فى (نيل الابتهاج) (46) .

ومثل (النوازل الصغرى) و (النوازل الكبرى) المعروفة بالمعيار الجديد . للوزاني مفتي فاس .

هذا الى جانب عدد كبير من مخطوطات الفتاوي والنوازل ، من القسمين السابقين التى تزخر بها المكتبات المغربية وما زالت لم تطبع بعد .

ولعل الناحية الطريفة للكتاب المغربى فى الميدان الفقهى التى انفرد بها دون بقية الاقطار الاسلامية الاخرى.

---

(46) ص 87

هي هذه الكتب التى تتضمن ما جرى به العمل فى المغرب ، مرتبا على أبواب المعاملات الفقهية ، مثل (نظم العمل المطلق) وشرحه للسجلماسى الرباطى ، و (نظم العمل الفاسى) لابى زيد الفاسى ، وسروحه للناظم ، والسجلماسي ، والبيعمري ، والوزاني ، وجنون ، وغيرهم .

فمنذ سجن فقهاء المسلمين أنفسهم داخل مذهب واحد لا يتعدونه ، واجهتهم مشكلة تعدد الاقوال فى المذهب الواحد ، فحاولوا التغلب عليها باعتماد القول الراجح أو المشهور ولكن هذا الراجح أو المشهور قد يعارضه مرجح آخر ، كأن يكون فيه حرج ومشقة على الناس أو يخالف أعرافهم وما اعتادوه ، فيلجأ الفقهاء لمخالفة المشهور أو الراجح ، ويستندون الى قول آخر ضعيف ، فيصبح بجريان العمل به أقوى من الراجح أو المشهور .

وهي حيلة بارعة للتخفيف من وطأة الحلقة الحديدية الخانقة التى وضعوها فى أعناقهم عندما أغلقوا باب الاجتهاد وسجنوا أنفسهم فى قفص تقليد مذهب واحد لا يتعدونه ، كما أنها من أفيد الوسائل فى تطوير الاحكام الاجتهادية .

ومع أن جمهور الفقهاء يأخذون بمبدا الارتباط بين أحكام المعاملات واعراف الناس ، فاننا لا نعرف عن غير المغاربة أنهم توسعوا فى ذلك الى الحد الذى ذكرناه . وذلك مظهر من مظاهر واقعية التفكير الفقهى عند المغاربة، مما جعلهم يجدون الحلول الاسلامية لكثير من المشاكل المستعصية ، كما فعلوا – مثلا – فى مشكلة السلف بدون فائدة ، حيث كانت بقيسارية فاس دراهم موقوفة للسلف . كما عند الشيخ التاودي ابن سودة في (شرح التحفة) (47) وهي سابقة تاريخية تفتح افقا فسيحا للتفكير من جديد فى حل اسلامى صميم لاعوص مشكلة تواجه النظام الاقتصادى الاسلامى فى العصر الحاضر .

على أن الكتاب الفقهى المغربى لم يقتصر على الناحية الواقعية العملية وحدها بل اهتم كذلك بالناحية النظرية أيضا .

ومن ذلك **الفقه المقارن** ، مثل كتاب (الآثار والدلائل) فى الخلاف بين مالك وابى حنيفة والشافعى ، لابى محمد الاصيلى نزيل الاندلس (ت 372هـ)

ومثل كتاب (تهذيب المسالك فى نصرة مذهب مالك) تاليف يوسف ابن دقناس الفندلاوى – من ناحية فاس – نزيل دمشق ودفينها ، الشهيد فى الدفاع عنها عندما

هاجمها الصليبيون سنة 543هـ في قصة رائعة أوردها ياقوت فى معجم البلدان (48) عن ابن عساكر .

وقد أشار الفندلاوي في خطبة كتابه الى طول بعض المؤلفات فى هذا الموضوع ، وعدم انصاف مؤلفيها ، قائلا : « وقلما تجد فى هذا الشأن منصفا ، أو خصما بالحق معترفا » فالف كتابه « موجزا مختصرا ، أودعه أسرارا عجيبة ، وذكر ما لنا وما علينا ، معرا من اللجج ، مؤكدا بواضح الحجج ، على منهج العدل والانصاف فيما بيننا وبين أصحاب الخلاف : أبى حنيفة والشافعى » حسب تعبيره ، ويقع فى 130 ورقة .

ومن ذلك **كتب فقه الحديث** ، مثل كتاب المهد الكبير الجامع لمعانى السنن والاحكام ، وما تضمنه موطأ مالك من الفقه والآثار ، وذكر الرواة البررة الاخيار ، وكل ذلك على سبيل الايجاز والاختصار ، تاليف أبي على بن الزهرا عمر بن علي العثمانى الورياغلى من بنى عمران من أهل القرن الثامن للهجرة .

ويقع فى واحد وخمسين مجلدا كبارا ، لم يبق منها الا عشرة أجزاء مفرقة فى القرويين والخزانة العامة بالرباط ومكتبة القصر الملكى ومكتبة ابن يوسف بمراكش ومكناس والزاوية الحمزاوية .

وذلك مثل آخر من نكبات المكتبة المغربية التى أشرنا اليها فى أول هذا الحديث .

هذا – ولم يكن تفوق الكتاب المغربى فى الميدان الفقهى قاصرا على الفقه الاسلامى وحده ، بل انه تعداه الى **الفقه اليهودى** أيضا .

فهذا اسحاق بن يعقوب الكوهن المعروف عند فقهاء اليهود بالفاسى ، الذى ولد بقعة سلاس بالقرب من فاس أوائل القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى

---

(47) ج 2 ص 211

(48) ج 6 ص 401 طبع القاهرة

ودرس في القيروان ، ثم رجع الى فاس ، فانكب على دراسة التلمود وشروحه ووضع في فقه التلمود كتابا يقع في عشرين مجلدا استغنى به فقهاء اليهود عن الالتجاء الى مختلف الدراسات الاخرى المتعلقة بالتلمود وشروحه حتى اعتبره بعضهم بمنزلة تلمود ثان .

وخلف الى جانب ذلك مجموعة من الفتاوى باللغة العربية تشتمل على ثلاثمائة وعشرين فتوى .

وقد ترجمها الى العبرانية ابراهيم هاليوى أبو قراط . ولا زال بعضها موجودا بالعربية الى الآن . كما كتب باللغة العربية كتابا مطولا يتعلق بثلاث نقط فقهية موجودة في التلمود .

وفي الربع الاخير من القرن الخامس الهجرى الحادي عشر الميلادي ذهب الفاسي الى الاندلس حيث اقام في قرطبة ثم في غرناطة ، واخيرا استقر في اليوسلنة من اعمال قرطبة حيث أسس هناك معهدا للدراسات العليا التلمودية اشتهارا كبيرا ، وأمه الطلاب من كل الجهات ، وبقي هناك الى أن توفي أواخر القرن الخامس هـ أوائل الثاني عشر م .

ولا يزال الفاسى الى يومنا هذا معتبرا من أعظم الفقهاء المعتمدين لدى اليهود كما يتجلى ذلك بوضوح في كتاب (المقارنات والمقابلات) لمحمد صبرى ، وهو الذى لفت نظرى اليه . وفي كتاب (العلم عند العرب ، وأثره في تطور العلم العالمى) للعالم الايطالى الدو ميبلى .

حديث عنه (49) ثم كتب لي بتفصيل خبره أستاذ يهودى من قدماء طلبتى بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط .

وليس معنى هذه الفذلكة المختزلة المبتسرة عن تبريز الكتاب المغربى في الميدان الفقهى القانونى أن الكتاب المغربى كتاب فقه ليس الا ، فمع ما للميدان الفقهى من اهمية بالغة وقيمة كبيرة في تنظيم حياة الامة وحفظ حقوق افرادها فاننا قد قدمنا أن الكتاب المغربى ساهم في سائر الميادين التي ساهم فيها الكتاب العربى . وقدمنا أسماء طائفة من الكتب المغربية في موضوعات مختلفة تجاوزت في القديم والحديث النطاق المحلى ودخلت في صميم التراث العربى العام . ويكفى أن أشير الى قول صاحب (كشف الظنون) عن (كتاب جامع المبادىء والغايات في علم الميقات) لابى على الحسن المراكشى ـ وقد قدمنا ذكره ـ : وهو أعظم ما صنف في هذا الفن ! (50) .

ويوجد الى جانب تلك الكتب كتب مغربية برزت في ميادينا تبريزا فائقا ، ولم تتيسر لها الفرص المناسبة لتنشر خارج المغرب وتقدر هناك التقدير اللائق بها . ولكن المجال الضيق لهذا الحديث لا يسمح بالتوسع في هذا الموضوع .

ولكنا قصدنا الى تجلية هذه الناحية الفقهية بصفة خاصة . لنلفت النظر الى ما امتازت به العقلية المغربية من التبريز في ميدان التفكير القانونى ، وما ينتظر منها من المساهمة المنتجة في نهضة الفقه الاسلامى الحديثة في جامعات مصر وسوريا ولبنان والعراق عندما تتحرر البلاد من احتلال القوانين الاجنبية التى وضعها أعداء البلاد أثناء فترة الاحتلال الاجنبى البغيض ، في نطاق المخطط الاستعمارى الاجرامى لقطع صلة الامة بدينها القويم وماضيها المجيد ، وحضارتها وثقافتها وروابطها الفكرية المتينة مع بقية الاقطار العربية ومحو شخصيتها وثمتين الاغلال التى تمسك بخناقها في حضيض الاستعمار الروحى ، وعار الاحتلال الفكرى ، وخزي التبعية الثقافية.

فمع ما في بقاء هذه القوانين الاجنبية من اهانة للامة ودوس لكرامتها الوطنية فان أمة لها هذا التراث الفقهي الضخم والماضي القانوني المجيد ، لا يجوز أن تقطع صلتها بهذا الماضى المشرق الوضاء وتصبح عالة على أعدائها في فقه يرجع في أصله الى الوثنية الرومانية وقد طبعته المسيحية والالحاد اللذان سيطرا على فرنسا في حقبتين مختلفتين بطابعهما الخاص .

هذا الى أنه لا يتصل بحياة الامة وعقليتها وطبيعتها وحضارتها .

وقد سبق لرائد الفكر الاسلامى الحديث الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله أن نبه الى الصلة التى يجب أن تكون بين ما يشرع للامة من قوانين وبين

---

(49) ص 308

(50) ج 1 ضلع 572 طبع استنبول 1360 هـ 1941 م

احوال الامة وطبائعها وعاداتها واخلاقها ، فرب قانون يلائم مصالح قوم لا يلائم مصالح آخرين فينفع اولئك ويضر بهؤلاء .

ونحن ـ وان كنا من غلاة المتطرفين فى الدعوة الى الاجتهاد والاستقلال فى التفكير ومسايرة التطور والتجديد ، والاستفادة من تجارب الامم المتقدمة فى ميادين التنظيم والتسيير ، ومحاربة الجمود والتقليد والتعصب المذهبى ، ونعتبر ذلك شرطا أساسيا للانبعاث الاسلامى المنشود ، والقضاء على الرجعية والامعية والتخلف الفكرى والكسل العقلى ـ فاننا نريد تجديدا اسلاميا فى نطاق الاسلام وفى دائرته ، لا تقليدا كفريا اجنبيا ، ومعاذ الله أن ننكر الجمود على ما قاله الائمة السابقون ونقبل الجمود على ما شرعه الاعداء الكافرون المستعمرون .

على أنه مما لا مجال للجدال فيه ان فقهنا فى حاجة الى تقنين ، والى كتب جديدة يضعها فقهاء متخصصون في دراسة الشريعة الاسلامية ، متبحرون في معرفة مصادرها وأصولها ومذاهبها ، متعمقون فى أسرارها وحكمها وفلسفتها يعرضونه بلهجة العصر واسلوبه وعقليته وروحه ويواجهون حاجياته المستجدة ، بعد أن لم تبق الكتب القديمة صالحة لسد هذا الفراغ .

ولنعد الى موضوع الكتاب المغربى فنقول : ان من الحق أن هناك كتبا مغربية لا ينطبق عليها ما قلناه عن الكتاب الفقهى ، من أن الغالب عليه التحرير ، والتحرى فى النقل والتعمق فى البحث والاصالة فى التفكير ومن ذلك مثلا كتب المناقب والفضائل والغيبيات وما اشبهها ، فان الغالب على الكتاب المغربى فيها التساهل وعدم الاهتمام بالتحرى والنقد والتحميص ولو كان مؤلفه من كبار الاعلام .

على ان من الحق كذلك أن نقول أن ذلك ليس من خواص الكتاب المغربى وحده ، بل هي ظاهرة عامة فى الكتاب العربي في هذه الموضوعات ذي الاغلب الاعم .

وقد كان من آثار حفظ الله للمغرب من الاحتلال التركى أن بقيت حالة اللغة العربية فى المغرب سليمة فلم تصب بما أصيبت به فى بقية البلاد العربية الاخرى .

قال الرحالة التونسى الشيخ محمد بيرم فى (صفوة الاعتبار) (51) : ولعمرى ان صناعة الانشاء فى الدولة باللغة العربية كادت الآن ان تكون مقصورة على دولة مراكش . وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا، وكادت كتابتهم أن تخرج عن الاسلوب العربى ، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية ، بخلاف كتاب المغرب ، وهذا ديدنهم من قديم .

الزخرفة فى الكتاب المغربى :

وكما اهتم المغاربة بموضوع الكتاب ، فقد اهتموا كذلك بمظهر الكتاب ، فكان لهم فن جميل خاص فيما يتعلق بنسخ الكتب وزخرفتها ، وتزيينها بالصور أحيانا ، وبالاشكال الهندسية والذهب والالوان سواء فى صلب الكتاب ، وهوامشه ، وأطرافه أو فى تسفيره .

ففى مكتبة القصر الملكى بالرباط قطعة من كتاب فى البيطرة لمؤلف مجهول . لا أول لها ولا آخر وهي بخط مغربى جميل ملون . وفيها أربع صور :

1) تمثل فرسا بيضاء ، ملجمة . وسائسها فاتح فمها يقلب أسنانها .

2) تمثل فرسا قهوية اللون بيضاء الاطراف ، مربوطة من حافرها الاول الايمن .

3) تمثل فرسا بها برص

4) تمثل حصانا قد أقفز على حجرة وراسها فى يد سائسها ، وهي مشكلة الاربع ، وقد قبلت الفحل ولم تنفر منه أصلا . ـ والعبارات فى وصف هذه الصورة الرابعة للمؤلف ـ

قال المؤلف : ويكون وراءها فى الورقة التى تلى هذه الورقة ، وهي نتاجها .

ولكن هذه الورقة التى أحال عليها غير موجودة فى هذه القطعة ، وهي تحت رقم 6126م .

ومن هذا الكتاب أيضا قطعة أخرى فيها صورتان ملونتان جميلتان :

تمثل احداهما فرسا دهماء ادخل بيطار في

(51) ج 1 ص 21

رحمها متانة وهو ينفخ فيها . ويمسك بلجامها رجل جالس على مصطبة من جلد .

وتمثل الثانية حصانا أبيض يسقيه بيطار دواء في قرن بقرى طويل . وقد ارتفع البيطار فوق دكة ليصل الى فم الحصان والبيطار يرتدى قميصا مغربيا ودراعه مغربية فوقها كساء مخطط ، وفوق راسه عمامة مغربية ، وهي تحت رقم 1016 .

واخبرنى كتبى أنه كان يملك عدة كراريس من مخطوط مغربى فى البيطرة يرجع تاريخ نسخه الى حوالي أربعة قرون . وفيه صور كثيرة للخيول فى أوضاع واشكال مختلفة .

كما أخبرنى الاستاذ المنونى أنه يملك نسخة من كليلة ودمنة فى حجم كبير بخط مغربى ردىء مجدول ملون كتبت للباشا سعيد بن العياشى ابن عبد السلام ، وبها ثمان صور غير متقنة لحيوانات .

وكان المستعرب الايطالى ليفى دلآفيدا قد أوقفنى فى منزله بروما صيف 1959م على قطعة من قصة مصورة بعنوان (بياض ورياض) قائلا انها المصور المغربى الوحيد بمكتبة الفاتيكان وهي قصة شاب اسمه بياض ، من أسرة كريمة من دمشق ساح فى البلاد وقابل فتاة اسمها رياض على شاطىء نهر يسمى طرطر فهام بها واصباته محن وحرمان ، ويتضمن النص الاشارة الى ثلاث عشرة صورة ، حيث يذكر فى كل موضع عنوان الصورة التى تمثل منظر الحادثة التى يوردها ولكن لا يوجد بالنص الآن الا تسع صور وتعتبر الاربع الاخرى ضائعة .

وقد نشرت الجمعية الاسبانية الامريكية هذه القصة مصورة عن الاصل الموجود بالفاتيكان بخطه المغربى الجميل . فى مطبعة جريدة الهدى اليومية الامريكية فى نيويورك مع ترجمة اسبانية بقلم الدكتور ا.ر. نيكل سنة 1941 .

ثم أننى وقفت فى كتاب (الفن والفنانون المسلمون) لانطونيو غارسيا خاين على ثلاث صور من القصة المذكورة قائلا انها قصة اسبانية (52) .

وتحدث الدكتور جمال محرز فى كتيبه (التصوير الاسلامى ومدارسه) عن هذه القصة على انها أندلسية ، وقال انها من القرن الثامن الهجرى للميلاد (53) .

وفى كتاب (العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع) الذي ألفه بالاسبانية ابراهيم بن احمد بن غانم بن محمد ابن زكرياء الاندلسي وترجمه عن الاسبانية ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده احمد بن قاسم بن احمد ابن قاسم الحجري ، حوالي ثمانين صورة تتضمن جميع أشكال المدافع وآلات الحروب القديمة على اختلاف انواعها .

ويوجد بخط مؤلفه فى الخزانة العامة بالرباط (54) وفى تركيا ، وفى دار الكتب المصرية ، ومنه نسخة فى مكتبة القصر الملكى بالرباط (55) وكانت توجد منه نسخة بالقرويين ولكنها ضاعت .

وهذا الكتاب هو أول كتاب ترجم للعربية فى الموضوع ومنه تعلم ملوك تونس أعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

وذكر احمد تيمور فى كتاب (التصوير عند العرب) أن عنده (نزهة المشتاق) للشريف الادريسى وبه مصورات كثيرة (56) .

ونبذة فى هول يوم القيامة منقولة من ذخيرة المحتاج) مغربية الخط بها صورة خيالية لجهنم وأوديتها وهي بالحمرة والسواد (57) .

قال : ولا يذهب عن الذهن تصوير الحرمين فى نلائل الخيرات . وما امتازت به بعض نسخها من الاتقان في الزخرفة والتذهيب وقد اطلعنا على نسخ منها مشرقية ومغربية غريبة الصناعة ، بالغة النهاية فى جودة التصوير والنقش (58) .

وفى الخزانة العامة أزيد من خمس نسخ من جزء (ذخيرة المحتاج) عن المعراج الحسى وفيه صورة سدرة المنتهى ، وقلم القدرة النورانى ـ واللوح المحفوظ الربانى ، وصورة الجنان (59) .

هذا ما يتعلق بالتصوير فى الكتاب المغربى .

وطبيعى فى مجتمع يهتم بالعلم والدرس وليس به مطابع ولا آلات للكتابة ، ان تزدهر النساخة بين الطلبة والعلماء والمثقفين .

---

(52) ص 48ـ49 (53) ص 43ـ44 (54) رقم ج 85 (55) رقم 2646 م (56) ص 45 (57) ص 45 (58) ص 59
(59) الارقام ك 2776 ك 2768 ، ك 2764 ، ج 518، ج 510

وقد حدثنا علي بن ميمون الغماري دفين لبنان في (رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن) التي كتبها بصالحية دمشق سنة 915هـ 1519م . ووجهها لاخوانه بفاس : انه عندما كان بفاس – التي قال عنها انه لما أتى إليها من غمارة حوالي 867هـ 1463م وجدها روضة من رياض الجنة . – كان مولعا بالنسخ . فنسخ في علم الفقه وفي علم الفرائض والحساب كتبا أمهات وشروحا ، وفي علم الشعر والقوافي أما وشرحا وفي علم التوحيد كذلك أما وشرحا ، وفي علم الهيئة ، وفي علم الوقت والتعديل ، والطلسمات ، وعلم الاوفاق وسر الحرف ، والبسط والكسر ، وشيئا من كتب البوني ، والمباحات ، وتجارب الفرس ، وغير ذلك (60) وقد اهتمت كتب التربية والتعليم المغربية – أو كتب آداب طالب العلم كما كانوا يسمونها بآداب النساخة وقواعدها مثل (قانون) اليوسي . ومنظومة (سراج طالب العلوم) للعربي المستاري وشرحها (طراز الذهب المرقوم) لوالدي أبي العباس أحمد بن جعفر الكتاني رحمه الله . وشرحها (الابتهاج) لشيخنا أبي العباس البلغيثي رحمه الله .

وفيها يوصي الناسخ : بتجويد المداد وتحسين الحروف ، وتقويم السطور ، وتوفير البياض بين السطرين ، والتفرقة بين خط المتن وخط الشرح ، وان يكتب بالحمرة تراجم الكتاب وما أشبهها وتغليظ الحروف ان اتحد اللون ، وباتخاذ سكين لبري القلم وبشر ما يقع في الكتابة من زيادة حرف أو تحريف ، ويحذره من المبالغة في ترقيق القلم ، ومن المحو والاكثار من الضرب أي التشطيب ويأمره أن يصلح ما يجده في الاصل المنتسخ منه من لحن ظاهر اذا كان عند الناسخ من العلم ما يؤهله لذلك ، وأما ما كان غير واضح فليكتب عليه (كذا) أو يترك محله بياضا حتى يعثر على أصل صحيح يعتمد عليه .

وأخبرني الاستاذ العابد الفاسي انه وقف على رسالة من عصر السعديين في موضوع الاصباغ والالوان وأنواع المداد والاقلام التي يكتب بها كل موضوع على حدة .

والى جانب معامل الورق الكثيرة التي قال صاحب (القرطاس) انه كان منها بفاس أواخر القرن 6 وأوائل 7هـ ، أواخر 12 وأوائل 13م أربعمائة حجر (61) فقد كانت صناعة نسخ الكتب صناعة رائجة يتعيش منها أقوام لهم خطوط جيدة ويحسنون تزويق الكتب وتذهيبها وزخرفتها أو يكلون التزويق الى من يحسنه . وكان بالقصر الملكي موظفون خاصون بالنسخ والتزويق .

وكان من كبار العلماء من لهم خطوط جميلة ويحترفون صناعة نسخ الكتب يتعيشون منها وكان الناس يتغالون في شراء ما ينسخه هؤلاء العلماء من كتب ، لانهم عرفوا بتحريهم تصحيح ما ينسخون .

بل كان الملوك والامراء والرؤساء والاغنياء يعتنون بنسخ المصاحف وكتب الحديث والسيرة النبوية ، ويبالغون في زخرفتها تقربا الى الله ، وتخليدا لاسمهم ومنهم من كان يوقفها على مكتبات المساجد ، وخصوصا الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى كما هو معلوم .

وفي مكتبة ابن يوسف بمراكش شذرات من مصحف على رق الغزال تحت رقم 433 كتبها سنة 604 عمر المرتضى آخر ملوك الموحدين في عشرة أجزاء ، وفي آخر الجزء الخامس صفحتان مكتوبتان بالذهب محاطتان باطار مذهب ، وبعدها لوحة مذهبة ملونة ، وتوجد منه قطع بمتحف الاوداية بالرباط .

وقد تحدث المؤرخون المغاربة والمشارقة من قدماء ومحدثين ، كابن خلدون والخطيب ابن مرزوق ، والمقريزي وابن نباتة والناصري ومخلص والمنوني عن مصاحف أبي الحسن المريني الثلاثية التي كتبها بيده في رق الغزال ، بمداد من فتيت المسك وعطر الورد ، وربما أضيف اليها في بعض الاحيان الزعفران الشعري ، وكل واحد منها في 30 جزءا ، وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها ، وصنع لها أوعية من الابنوس والعاج والصندل فائقة الصنعة مغشاة بصفائح الذهب مرصعة بالجوهر والياقوت ، واتخذ لها أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ، ومن فوقها غلافات الحرير والديباج وأغشية الكتان ، وأوقف نسخة منها بالحرم المكي ، ونسخة ثانية

---

(60) راجع في الخزانة العامة بالرباط الارقام : (1780،ق 95،ك 1052)
(61) ص 49 طبع حجر بفاس

على المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وثالثة على المسجد الاقصى بالقدس الشريف (62) .

وقد وقفت على ما بقي من أجزاء النسخة الثالثة بالمتحف الاسلامي بالقدس الشريف عندما زرته أول مرة أواخر سنة 959هـ .

وفى الاسكوريال مصحف بخط المنصور السعدى كتبه بمحلول العنبر وماء الورد حسبما ذكر فى آخره .

وقد اهتم المغاربة اهتماما فائقا بزخرفة وتذهيب وتزويق المصاحف الكريمة وكتب الحديث النبوى الشريف وخصوصا الصحيحين ، وكتب السيرة النبوية ككتاب الشفا لعياض ، وشمائل الترمذى ، والاكتفا للكلاعى وكتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ككتاب دلائل الخيرات للجزولى وذخيرة المحتاج للمعطى الشرقى البجعدى ، والامداح النبوية ، كبردة البوصيرى وهمزيته، ولامية كعب بن زهير ، ووتريات البغدادى وما أشبه ذلك .

بل ان كتب القصر الملكى تجاوزت ذلك الى زخرفة كتب الطب والصيدلة والهندسة والادب والتاريخ والكيمياء والرحلات وغيرها .

وهكذا تملك المكتبة المغربية ثروة ضخمة جدا من الكتب المزخرفة والمذهبة والملونة الرائعة ، تبلغ آلاف المجلدات ، وتعتبر من أعظم ذخائر الحضارة الانسانية على العموم .

وقد بقيت صناعة النساخة مزدهرة بالمغرب ، وعلى الخصوص بفاس ومكناس الى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وكذلك ازدهرت بالمغرب صناعة زخرفة الجلد ونقشه وتذهيبه وحفره ازدهارا كبيرا ، وكان بفاس ـ وما زال ـ سفارون ماهرون ، حتى أنف احمد بن محمد السفيانى رسالة فى تسفير الكتب وحل الذهب ، كما كان بالقصر الملكى موظفون خاصون بذلك .

وقد اكتسب جلد الكتاب عند المغاربة الاحترام والتعظيم تبعا للكتاب ، فجاء فى المثل الدارج ، (على وجه الكتاب تباس الجلدة) أي تقبل .

ناهيك أن بعض اللغات الاوربية ـ كالفرنسية مثلا اشتقت من كلمة (المغرب) (ماروك Maroc وصف (مغربى) مجردا عن ذكر الموصوف Maroquin مرادا به **الجلد المستعمل للتجليد الجميل** ثم اشتقت من الكلمة كلمة ماروكينورى Maroquinerie للدلالة على مختلف الصناعات الجلدية وعلى تجارة الجلد، والمكان الذى يصنع فيه ، وصاغت منها وصف (ماروكينيى Maroquinier لصانع الجلد وبائعه .

وتلك احدى مظاهر تأثير الكتاب المغربي خارج المغرب .

ومن أبرز ذلك أيضا هذه الارقام العربية التى علمناها لاهل أوربا فاستبدلوها بارقامهم الرومانية واحتفظوا لها فيما بينهم باسم الارقام العربية .

وقد أشار القلقشندى فى (صبح الاعشى) الى أن كتابة الامم السودانية مثل مالى والتكرور وغيرهم هى بالخط العربى على طريقة المغاربة (63) .

وذكر عبد الفتاح عبادة فى كتاب (انتشار الخط العربى) أنه تولد من الخط الفاسى خط جديد انتشر فى جميع أنحاء السودان ، وذلك لانتشار الاسلام فى تلك الاصقاع على يد أهل المغرب (64) .

وقال الدكتور حسن احمد يوسف السودانى فى الكلمة التى ألقاها باسم الجمهورية السودانية في المؤتمر الاقليمى الاول بفاس للجان الوطنية العربية لليونسكو سنة 1377هـ 958هـ : فاثر المغرب فى السودان واضح فى كل مكان : علمه القديم يدرس فى المساجد وأثره واضح فى الحياة الدينية فى كل نواحيها) (65) وذكر صديقنا المرحوم الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد فى أطروحته الجامعية (التربية فى السودان من أول القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر) : أن من كتب الدراسة فى السودان (النيلى) : الاجرومية ، ومتن الخراز ، كما ذكر دلائل الخيرات ، ووظيفة الشاذلى وأحزابه والطرق الناصرية ، والتيجانية والاحمدية

---

(62) راجع مثلا الناصرى : الاستقصا ج ص 127ـ131
(63) ج 5 ص 298 (64) ص 76ـ79 (65) المؤتمر الاقليمى ص 71 طبع الرباط

أو الادريسية المنسوبة لاحمد بن ادريس الميسورى نزيل عسير (66) .

كما تحدث الاستاذ عبد المجيد عابدين المدرس بكلية الخرطوم الجامعية في كتابه (الثقافة العربية بالسودان منذ نشأتها الى العصر الحديث) عن أن المغرب كان منبعا من منابع الثقافة الاسلامية في السودان ، بواسطة القبائل العربية المغربية (ص 40) وبواسطة العلماء المغاربة (ص 55 – 56) والطرق الصوفية : كالشاذلية (ص 64) وطريقة السيد احمد بن ادريس الفاسي بواسطة تلميذه محمد الامير غني الذي أرسله الى السودان فنجحت دعوته نجاحا تاما ، وبواسطة غيره من تلامذته الذين أخذوا عنه بمكة (ص 96–97) والطريقة التيجانية ، والرحمانية التي هي فرع من الدرقاوية ، والطريقة البدوية نسبة لسيدي احمد البدوي الفاسي دفين طنطا (ص 98–99)

وذكر لي صديقنا الاستاذ الصديق ابن العربى : أن المستعرب الفرنسى جان بيرك أخبره أنه لاحظ فى مكتبتى المهدى والمرغينى بالخرطوم أن اغلب كتبها بالخط المغربى .

ومن رجع الى مؤلفات أهل تمبكتو وسوكوتو مثلا ، مثل مؤلفات احمد بابا السودانى ، والشيخ المختار الكنتى ، وولده محمد وحفيده احمد البكاي ، وسلطان سوكوتو محمد بيلو بن السلطان عثمان انفوديو الفلاني ونحوها رأى الى أي مدى بلغ تأثير الكتاب المغربى فى هذه الاقطار .

وفى رسالة (افريقيا الغربية فى ظل الاسلام) ، للاستاذ السورى نعيم قداح الذى عمل مدرسا للغة العربية فى جمهورية غينيا سنة 1960 ، اشارات كثيرة الى أثر الثقافة العربية المغربية فى افريقيا الغربية .

مثل انتقال حب المغاربة للنحو والصرف الى الافريقيين ، لان كثيرا من كتب النحو قد حملها الاساتذة العرب الى افريقيا الغربية فيما أدخلوه الى تلك الاصقاع (67) .

وأن الدراسات الاسلامية الابتدائية هناك تغذى المراحل العليا فى تمبوكتو وفاس والقاهرة فيما اذا أراد الطالب متابعة تحصيله (68) .

وان التعليم فى أول أمره كان محصورا بالاساتذة العرب القادمين من شمال افريقيا ، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الافريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدامس العربية فى المغرب ومصر (69) .

وان فرنسا وبريطانيا رائدتي الاستعمار فى افريقيا الغربية لم تستطيعا تحويل أنظار الافريقيين عن فاس وتونس والقاهرة ومكة (70) .

– وذكر الشيخ محمد البشير النيفر التونسي : أن تونس ، بعد الحملة الاسبانية عليها ، سنة 981هـ 1573م وحريق مكتبتها الاسلامية أعادت تجديد ثقافتها بالاستمداد من مصر ومن المغرب الاقصى .

وعندما زار جلالة الملك الحسن الثانى جامع الزيتونة المعظم (يوم الاربعاء 4 شعبان 1384هـ 9 ديسامبر 1964م ارتجل بين يدي جلالته عميد كلية الشريعة بها صديقنا الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور خطابا أشاد فيه بالدور العظيم الذى قام به علماء المغرب فى تنوير الرأي العام التونسى ونشر المعرفة والثقافة العربية والعلوم الاسلامية بين التونسيين ، وقال :

ان كل شيء فى هذه الجامعة يذكر بالمغرب فابن عاشر ، وميارة ، وابن آجروم والشيخ المكودى وابن برى والخراز كلهم يذكرون التونسيين بالمغرب وأبو الحسن الصغير ، والتسولى ، والشيخ التاودى ابن سودة، وبنانى والرهونى يذكرون بالمستوى العالى العلمى بالمغرب .

وان خزائن هذا المسجد ومكتباته العلمية المشتملة على الآلاف من الذخائر العلمية لتذكر مطالعها باجتهاد علماء المغرب فى نشر الفكر والثقافة الاسلامية وتوسيع نطاق الثقافة العربية بهذه البلاد .

وقال الشيخ ابن عاشور : اننا مدينون فى هذا الميدان للمغرب بكل شيء ، فنحن نقرأ القرآن بوقف الهبطي القاسى ، ونصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة دلائل الخيرات للجزولى ، ونتفهم فضائل النبي

---

(66) ج 1 ص 154، 155 ، 156 ، 158 . 242 ، 245 (67) ص 145 (68) ص 145
(69) ص 143 و 142 ت (70) ص 152

صلى الله عليه وسلم وما خصه الله به من مكارم الاخلاق بواسطة كتاب الشفا للقاضي عياض ، كما ان رواية علماء تونس الحديث كلها تتصل في القديم والحديث بعلماء مغاربة من عهد دراس بن اسماعيل وأبي عمران الفاسيين .

ثم وضع بين يدى جلالته واحدا من عشرات الكتب الدينية والادبية التي يجد علماء تونس في مطالعتها متعة . وفي مراجعتها خير اداة لفهم العلم وتحصيله ، وهو مجموع يضم اربعة من مؤلفات السلطان محمد ابن عبد الله الذى كان صاحب مذهب كبير ومدرسة حديثية ممتازة (71) .

واما أثر الكتاب المغربي في مصر ، فنكتفي منه بذكر مثل واحد يغني عما عداه ، وهو ما حكاه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيما كتبه من ترجمته الشخصية، عن نفوره من العلم في بدء طلبه له بتلقي شرح الكفراوى على الاجرومية وقضاءه سنة ونصفا لا يفهم شيئا ، لرداءة طريقة التعليم . وفراره الى الشيخ درويش أحد اخوال أبيه الذى جاءه بكتاب وسأله ان يقرأ له شيئا منه لضعف بصره ، قال : « فدفعت طلبه بشدة ، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه اشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد » لكن الشيخ تبسم ، ولم يزل به حتى اخذ الكتاب وقرأ منه بضعة أسطر . فاندفع الشيخ درويش يفسر له معاني ما قرأ بعبارة واضحة ، تغالب أعراضه فتغلبه وتسبق الى نفسه .

وفعل في اليوم الثاني كما فعل في اليوم الاول ، أما اليوم الثالث فبقي يقرأ له وهو يشرح له معاني ما يقرأ نحو ثلاث ساعات .

قال : « ولم يات على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت احبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ما كنت ابغضه من مطالعة وفهم » .

وكان الكتاب الذى جاءه به الشيخ درويش ليقرأه له بخط مغربي دقيق (72) .

على أن التعرف بتدقيق على أثر الكتاب المغربي خارج المغرب ، يتوقف على ارسال بعثات ثقافية لمختلف البلاد لتقصي آثار الصلات الثقافية بينها وبين المغرب في مختلف العصور .

هذه نظرة خاطفة عن الكتاب المغربي وقيمته ، ينقصها كثير من التفصيل وضرب الامثلة وايراد الحجج والشواهد مما لا يتسع له الوقت الضيق المحدد لهذا الحديث بينما الموضوع شاسع الاطراف فسيح الجوانب يتسع الكلام فيه للمجلدات الضخمة العديدة .

وختاما نتمنى من صميم افئدتنا أن تتحرر بلادنا في القريب العاجل ، من وطأة الاستعمار الفكرى وعار الاحتلال اللغوى ، وخزي التبعية الثقافية ، حتى يستطيع الكتاب المغربي العودة من جديد لمواصلة رسالته الدينية والعلمية والثقافية والحضارية في الداخل والخارج ، كجزء لا يتجزأ من الكتاب العربي ، له طابعه الخاص وشخصيته المتميزة ، فتتحقق من جديد وحدة الكتاب العربي ، وبالتالي وحدة الثقافة العربية ، كما تحققت من قبل في القرون الخالية ، والاجيال الماضية وما ذلك على همة ووطنية الامة المغربية العربية المسلمة المكافحة ببعيد بحول الله .

محمد ابراهيم الكتانى

---

(71) من المؤسف ان كتاب (سبعة ايام في تونس) أهمل تسجيل خطاب الشيخ ابن عاشور والجواب القيم الذى ارتجله جلالته (ص 55)

(72) محمد رشيد رضى : تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ص 20-24 .